حافظ صالح

صخور على الطريق..

2004 م – 1325 هـ

الفهرس

الفهرس 2

مقدمة الناشر 3

الوصول إلى الحكم 4

عودة الإسلام للحياة 13

الهدف 19

البحث في الطريقة 30

إصلاح الفرد وإصلاح المجتمع 33

الثورات 42

الكيان الفكري 45

نظرية العصيان المدني 51

العصيان المدني ومايتطلبه من أعمال 54

مملاة الحاكم 67

مرحلة الترف الفكري 71

الطرق الصوفية 73

الأكثرية الصامتة 40

الدعوة السلفية 41

صحوة بطيئة 42

التصوف 43

خاتمة 44

مقدمة الناشر

الحمد لله الذي خصنا بميزة الاسلام فخلقنا مسلمين , والصلاة والسلام على اشرف خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم نبي الهداية لنا وللناس اجمعين .

فبين أيدينا كتاب " صخور على الطريق " للاستاذ حافظ صالح رحمه الله , يبحر فيه سابرا غور الدعوة الى الاسلام وما يجب ان تكون عليه وما يجب ان يكون عليه حملتها .

فالله سبحانه خلقنا وأمرنا ان نسيّر أعمالنا وفق شرعه , فقال عز من قائل " وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون (قال **ابن عباس** وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون : **(إلا ليقروا بالعبودة طوعا وكرها.**) وان يأتوا ما أمر به وينتهوا عما نهى عنه . ومن هنا كان لزاما على كل مسلم أن يسير حياته وفق شرع الله , قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": (مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ) رواه البخاري ومسلم .

وكما الحياة فكذاك حمل الدعوة لدين الله , فلا يكفيني محبتي لله ولرسوله ولدينه لأكون على جادة الصواب في الدعوة الى دين الله وتحكيم شرع الله , بل لا بد من علم بالاحكام الشرعية المتعلقة بطريق السير الى الهدف والاحكام الشرعية الشارحة والموضحة للهدف , فالله سبحانه يقول " ما فرطنا في الكتاب من شيء .

" **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني** وسبحان الله وما **أنا من** المشركين " يوسف 108 . يقول الطبري في تفسير الآية : يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: " قُلْ " للناس " هَذِهِ سَبِيلِي " أي: طريقي, التي أدعوا إليها, وهي السبيل الموصلة إلى الله, وإلى دار كرامته, المتضمنة للعلم بالحق, والعمل به, وإيثاره وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له. " أَدْعُو إِلَى اللَّهِ " أي: أحث الخلق والعباد, على الوصول إلى ربهم, وأرغبهم في ذلك, وأرهبهم مما يبعدهم عنه. ومع هذا, فأنا " عَلَى بَصِيرَةٍ " من ديني, أي: على علم ويقين, من غير شك ولا امتراء, ولا مرية. " أَنَا " كذلك " وَمَنِ اتَّبَعَنِي " يدعو إلى الله, كما أدعو, على بصيرة من أمره. " وَسُبْحَانَ اللَّهِ " عما ينسب إليه, مما لا يليق بجلاله, أو ينافي كماله. " وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ " في جميع أموري, بل أعبد الله, مخلصا له الدين .

فالبصيرة أساس أمر الله به نبيه , وأمر به من يريد حمل دعوته فألزمهم ان تكون أعمالهم ودعوتهم على بصيرة وأمرهم ان يمكنوا من يتبعهم ويحمل معهم الدعوة من البصيرة التي عندهم , فلا بد لحامل الدعوة ان يبين للناس ولمن يتبعه ما هو عليه من عمل ومن طريقة ومن هدف , فلا يكون عند حملة الدعوة انقياد لشخص الداعية بل قناعة عن بينة ودليل للطريقة وللهدف .

" **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني** وسبحان الله وما **أنا من** المشركين "

والله نسأل ان يجعل هذا العمل في ميزان حسنات استاذنا رحمه الله وان ينفع به .

الوصـول إلى الحكـم

حتى يوجد الإسلام في واقع الحياة فلا بد أن يأخذ دوره الطبيعي بأن يكون الشارع حاكماً على كل أفعال العباد من خلال سيادته في كافة العلاقات التي تنظم حياة الناس بالإضافة إلى وجوب إقامة الحجة على الناس به.

أما سيادة الشرع في كافة العلاقات التي تنظم حياة الناس، فالله سبحانه و تعالى نظم حياة الناس بنظام دقيق، لم يترك شاردة ولا واردة إلا و بيّن لها حكماً و لذلك فهو يصف كتابه العزيز تبياناً لكل شيء ويقول ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)) (المائدة:٣)

ولايقال هنا أن الدين المراد به هو ما يتعلق بالعبادات أي ما يتعلق بعلاقة الفرد بخالقه، فعلاقة التعبد بالاسلام أشمل وأوسع من ذلك فقد شمل ذلك كل عمل يقوم به الإنسان في الحياة قال الله–تعالى–: ((مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)) (ق:18) فالكلمة و هي أبسط عمل يقوم به الفرد تدخل الناس الجنة و تردي بصاحبها في جهنم، بل قال الله تعالى أكثر من ذلك: ((ولله مافي السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير)) البقرة: 284)، وقال–تبارك وتعالى–: ((كل نفس بما كسبت رهينة)) (المدثر:38) ، فمن حديث النفس إلى الجهاد المؤدي إلى الشهادة في سبيل الله مرورًا بالعبادات والمأكل والمشرب والمسكن والملبس والزواج و الطلاق و المواريث و العقود كالشركة و الوكالة و البيع و الشراء و رعاية الناس وتأمين المرافق لهم و تأمير أحدهم عليهم و تنفيذ ما جاء من أحكام في رعايتهم وتنظيم علاقتهم بغيرهم من رعاية أهل ذمتهم أو الوفاء لمعاهديهم أو قتال أعدائهم و الانتصار عليهم و إقامة شرع الله فيهم أو الشهادة في سبيل الله وعليه: فالشارع هو الحاكم على هذه الأفعال اقتضاءً أو تخييرًا أي بإباحتها أو وجوبها أوحرمتها أو ندبها أوكراهتها.

باختصار قد قام الإسلام بإيجاد أفكار تنظم حياة الفرد في عقيدته وعبادته و معاملته، وأفكار تنظم حياة المجتمع بوضع أهداف عليا للمجتمع لحفظ حياة الناس وحفظ استمرارية

وجودهم وحفظ أنسابهم وحفظ كراماتهم وحفظ عقولهم و حفظ أموالهم وحفظ أمنهم وحفظ مجتمعهم ودولتهم، وقيامهم على نشر دينهم ليكونوا –بحق– شهداء على الناس كما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) شهيداً عليهم وأنه سبحانه اشترى منهم أنفسهم وأموالهم يبذلوها في سبيل تبليغ ما أراد ليكافئهم بالجنة، قال تعالى:

{ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلإِنْجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ } (التوبة: ١١١)

فقد حدد لهم طريقة تنفيذ هذه الأفكار بكيفيات محددة، وبهذه الكيفية وجد الإسلام في واقع الحياة. وبهذه الكيفية تستأنف تلك الحياة التي أوجدها رسول الله(صلى الله عليه وسلم) وعاش عليها المسلمون ثلاثة عشر قرنًا ونيف.

ومن الملاحظ هنا أنه لا يمكن مطلقاً تطبيق هذه الأحكام للوصول إلى استئناف الحياة الإسلامية وتحقيق أهدافها إلا إذا كان هذا التطبيق من نفس منبع هذه الأحكام؛ إذ إن هذه الأحكام نفسها حددت طريقة تطبيقها بأن ينصّب المسلمون رجلًا منهم يمارس السلطان نيابة عنهم كما فعل المسلمون عندما نصبوا أبا بكر خليفة عليهم.

وعليه فلا استئناف للحياة الاسلامية إلا بالوصول للحكم ليقوم على:

- رعاية شؤونهم.
- إقامة حدود الله.
- حماية الثغور.
- حمل الدعوة للعالم.

إن الإسلام قد حدد واجبات الأمة وصلاحيات هذا النائب عن الأمة ومسؤولياته، كما حدد مسؤولية كل فرد في الأمة لمحاسبة هذا الحاكم والوقوف على حراسة هذا الدين وحسن تطبيقه،

ويعلم هذا النائب أنه سيحاسب على كل عمل يقوم به في هذا المجال كما يحاسب على العبادات و تنطبق عليه الآية

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (الزلزلة: 7–8) وهو أثقل الناس حملاً، و لذا قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين طلب الولاية: ﴿ يا أبا ذر إنك ضعيف ... وإنها أمانة .. وإنها يوم القيامة خزي وندامة .. إلا من أخذها بحقها .. وأدى الذي عليه فيها ﴾-[1] لذلك وجب أن يكون من يختاره المسلمون نائباً عنهم رجلاً ورعاً قوياً قائدًا يستطيع تحمل أعباء هذا الأمر، ولكي تشاركه الأمة هذه المسؤولية الجسيمة فرض نظامه سبحانه على عباده قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : [كلكم راع ومسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته][2]

لذا قال لهم أبو بكر لما تولى الخلافة: " أطيعوني ما أطعت الله ورسوله."[3]

الأساس الفكري:

نحمد الله الذي خص بني البشر بميزة العقل الذي نحكّمه في جميع اختياراتنا لأفعالنا، وفضّلنا به على خلقه وجعله مناط تكليفنا وخيّرنا باستعمال هذا العقل سبيلاً للنهضة إن اهتدى إلى الصواب أو أداة للانحطاط إن ضل باتباع الخطأ، وبإعمال هذا العقل اهتدى الإنسان لأن يجزم بأن لهذا الكون خالقاً أوجده من عدم وأنه يدبّر مخلوقاته غير المختارة بنظام محكم لا تتخلف عنه أبدًا وإدركنا أننا نحن المخيرون بعقولنا أحوج للنظام. فكان من رحمته بنا أن أرسل لنا رسلاً ختمهم بسيدنا محمد –عليه الصلاة والسلام– وبلغنا أفكار الحق لتكون أساس كل فكر عن الكون والإنسان والحياة وأركان هذا الفكر الأساس –لابد– من أن يكون صدقها جازماً

[1] أورده الألباني في صحيح الجامع، رقم: 7823، حكمه: صحيح.
[2] أورده الألباني في صحيح الترغيب ، رقم 1967 ، حكمه : صحيح
[3] أورده ابن كثير في البداية والنهاية ، رقم : 6/305 ، حكمه : صحيح

يقينياً مطابقاً للصواب فصدقت عقولنا وانعقدت عليها قلوبنا وصدقها الواقع فكانت عقيدتنا مبنية على أركان الإيمان بالله و ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. واخترنا أن نطيع الله إذ طلب أن نؤمن بهذه العقيدة، وطلب منا الإيمان بوحدانيته وربوبيته وتفرده بالألوهية وبجميع الصفات التي تقتضيها والأسماء التي ذكرها القرآن الكريم.

وطلب منا الإيمان بالملائكة وقد ذكر ذلك في القرآن الكريم بما يزيد عن سبعين آية . وبيّن أعمال البعض منهم، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

و طلب منا الإيمان بالكتب المنزلة وهي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وما أنزل الله من صحف على بعض النبيين جملة .كما أكد على الإيمان بما ورد في القرآن الكريم سواء مما يقع تحت الحس أو مما لا يقع عليه الحس :

وطلب منا الإيمان بيوم القيامة والجنة ونعيمها وجهنم وجحيمها،فقال –تعالى–:

{ ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِٱلإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } البقرة: ٨٥.

وطلب منا الإيمان بالرسل ابتداء من آدم –عليه السلام– وانتهاء ًبخاتم الأنبياء و المرسلين محمد –عليه الصلاة والسلام– سواءً من ذكر في القرآن الكريم أو من لم يذكر :

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ }غافر: ٧٨ ، دون تفريق بينهم، قال تعالى: { ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِٱللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ } البقرة: ٢٨٥، والإيمان بنبوة ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام وأنها ناسخة لجميع الأديان التي قبلها وأنها الدين الذي ارتضاه الله للناس منذ بعثة محمد عليه الصلاة والسلام وإلى

يوم الدين، قال تعالى: { إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلإِسْلاَمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ } آل عمران: ١٩، وقال تعالى { وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ آل عمران: ٨٥

ما يبنى على الأساس :

فكانت هذه الأركان أساساً يبنى عليها العقل الطريقة المسيرة لسلوك الإنسان بأن يتخذها قاعدة لسلوكه وتصرفاته، تلك القاعدة هي الحلال والحرام، فلا يقوم بعمل حتى يعلم حكم الله فيه فإن أذن له الشارع فعل و إلا فلا، وبهذا ينتفع بميزة العقل التي خصه بها رب العالمين ليكون العقل متحكماً بالسلوك وفق أوامر الحاكم القائل { إن الحكم إلا لله } الأنعام: ٥٧، فالله جعل أول ركن أوجبه على الفرد هو الانضمام لجماعة المسلمين بأن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وثنّى بواجبات كالصلاة والصيام و الزكاة والحج من استطاع إليه سبيلا.

فمن موجبات الركن الأول – الانضمام لجماعة المسلمين – التي أجمع عليها المسلمون أنه لا إيمان ولا إسلام لمن لم تتلبس جوارحه بالعمل .وباقرار اللسان بهذا الركن يعني التسليم حكما بجميع ما امر الله به وطاعة رسوله الله وتنفيذ ما طلب الله من الجماعة القيام به من أعمال تنظم علاقاتهم بخالقهم وفيما بينهم كجماعة وافراد ومع غيرهم وحصر مصدر هذا التنظيم بما جاء به الاسلام فكما نظم الاسلام بر الوالدين وصلة الرحم والحفاظ على الجار والإتصاف بالصفات الحميدة كالصدق والوفاء والخلق الحسن فشرع الاسلام امورا لا يصح اسلام من لا يعتبر نفسه مامورا بتطبيقها وهي:

- حفظ الدين) اني جاعل في الارض خليفة (فالانسان استخلف في هذه الارض ليقيم الحجة على العالم بتنفيذ حكم الله فيهم ,قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ وبقتل المرتد ,قال رسول الله ﷺ ﴿ من بدل دينه فاقتلوه ﴾[1] وقتال الكفار حتى يخضعوا لحكم الإسلام ,أن يسلموا أو أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وعشرات الأيات التي أوجبت القتال على المسلمين لتحقيق هذه الغاية وهي بسط

[1] أورده البخاري في صحيح البخاري ، رقمه : 6922 ، حكمه : صحيح

سلطان الإسلام على العالم أجمع.ولتحقيق هذه الغاية قال الله تعالى ﴿ إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل اللّه فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ,ومن أوفى بعهده من اللّه فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ,وذلك هو الفوز العظيم﴾

- حفظ النفس وفي سبيل المحافظة على نفوس الناس ,على هذه النفس البشرية التي كرمها الله أوجب على المسلمين قتل القاتل ,وبين هذه الجريمة حيث يقول تعالى ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾
- حفظ الانساب فأوجب على المسلمين المحافظة على أعراض الناس وأنسابهم ففرض عليهم إيقاع عقوبة زاجرة على من يمس أعراض الأخرين فجعل عقوبة الرجم على الزاني المحصن و مائة جلدة على الزاني الأعزب ,قال تعالى ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإمعانا في الحفاظ على الأعراض و كرامة هذا الإنسان أوجب على المسلمين تنفيذ عقوبة الجلد ثمانين جلدة على من يقذف عرض امرؤ ,قال تعالى ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ﴾
- حفظ المال أمرهم بالمحافظة على اموالهم فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ وجعل عقوبة زاجرة في سبيل ذلك وهي قطع يد السارق قال تعالى ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواأَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَاكَسَبَا نَكَالامِنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾
- حفظ العقل
- حفظ الأمن للجماعة فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ

الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ○ومن مثل هذه الاحكام الكثير الكثير مما اوجبه على المسلمين كجماعة و لم يسمح لأي فرد منهم أن يباشر أيا من هذه الأعمال لأنها ليست من صلاحيات الفرد ,بل من مسؤولية المسلمين كجماعة .ولكي يتأتى القيام بمثل هذه الاعمال عليهم أن ينيبوا عنهم من يتولى القيام بهذه المسؤولية.

- **حفظ الدولة**
- **حفظ الكرامة الانسانية**

كذلك من جهة أخرى أوجب عليهم دفع صدقاتهم إلى الأصناف الثمانية التي حددها الشرع فمن يتولى الجباية والتوزيع ,وبهذه المناسبة من يتولى تقدير الخراج وجمعه وتوزيعه على مستحقيه.

كل هذه المسؤوليات وغيرها من رعاية شؤون الناس كتعبيد الطرق وبناء المدارس وإيجاد المستشفيات و المساجد ,وإستخراج الثروات وبناء المصانع وإعداد القوة وتجهيز الجيش وإعداده ,وعقد المعاهدات أو إعلان الحرب وأخذ الجزية وإعطاء الأمان ,كل ذلك لا يتحقق – مع أنه فرض على المسلمين – إلا بإنابة فرد من المسلمين ليقوم بمثل هذا الأمر.

وجماع القول قول رسول الله ﷺ ﴿ لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم ﴾[1] فإن كان الثلاثة يحرم عليهم عدم مبايعة أمير عليهم ,فالأمة من باب أولى , وأن يكونوا بفلاة من الأرض ,ففي المدينة والقرية أولى .هذا من جهة وجهة أخرى فما دام أم هذه الأمور واجبة على الأمة فالعمل لوجودها واجب من قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب , فحمل الدعوة واجب ,نعم إن حمل الدعوة فرض ,والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض , ووجوب وجود كتلة تدعوا إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فرض ,إلا أن وجوب إيجاد حكم الله في الأرض وإستئناف الحياة الإسلامية و حمل الإسلام للعالم وفرض سلطانه

[1] أورده الشوكاني في نيل الأوطار ، رقمه : 9/157 ، حكمه : له شواهد

عليهم فرض .وهذا لايتأتى إلا بوجود نائب عن الامة – أي خليفة – يقوم بأعباء المسلمين بالمسلمين.

نعم إن حمل الدعوة فرض على كل مسلم أقلها الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر وهل هناك منكر أكبر من إبعاد حكم الإسلام عن الحياة، وابتغاء حكم الجاهلية بدلاً منه، وهل هناك جرم أكبر من اتخاذ المجالس النيابية أرباباً من دون الله، عن عَدِيِّ بن حَاتِمٍ قال ﴿ أَتَيْتُ النبيﷺ وفي عُنُقِي صَلِيبٌ من ذَهَبٍ فقال يا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هذا الْوَثَنَ وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ في سُورَةِ بَرَاءَةٌ ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا من دُونِ اللَّهِ ﴾ قال أَمَا إِنَّهُمْ لم يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إذا أَحَلُّوا لهم شيئا اسْتَحَلُّوهُ وإذا حَرَّمُوا عليهم شيئا حَرَّمُوهُ ﴾[1]

فاتخاذ المجالس النيابية – البرلمانات – سلطة تشريعية تتولى سن القوانين، أي تجيز وتمنع، وتحل وتحرم، فإنما يعني ذلك اتخاذ هذه المجالس آلهة من دون الله، قال تعالى : { أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ }المائدة: ٥٠

والدعوة لعمل الخير أي خير على أن يكون الشرع بينه أنه خير، فالدعوة إليه أو مباشرته فرض على المسلمين أقله إماطة الأذى عن الطريق، أو أقل ما يقال في بعض أفراد هذا الخير أنه مندوب.

وقد عدد الإسلام الكثير من أعمال الخير في كتاب الله أو في الأحاديث الشريفة فدراسة القرآن الكريم وتدريسه و المحافظة عليه من أبواب الخير، ودراسة الشريعة والتفقه في الدين من أبواب الخير، وبناء المستشفيات و المعاهد من أبواب الخير وكفالة اليتيم ورعاية المسكين ومأوى للعجزة من أبواب الخير، وتنظيم تقديم المساعدات للفقراء والمساكين والمحتاجين من أبواب الخير، إلا أنها وأمثالها مما يدخل تحت قوله تعالى:

سواء اعتبرنا هذا الأمر موجباً على المسلمين جميعاً أن يكونوا أمة واحدة تدعو للخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. فتكون الأمة كأنها كتلة واحدة و تنظيم واحد يقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و الدعوة للخير، أو أن نعتبر قوله تعالى:

{ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ } آل عمران: ١٠٤

[1] أورده الألباني في صحيح الترمذي ، رقمه : 3095 ، حكمه :حسن

أن من هي للتبعيض، أي أن تتكون من بعض المؤمنين جماعة يكون عملها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير، سواء أكانت جماعة واحدة أو عدة جماعات تقوم على هذا الأمر، وقد تختار إحداها الخير كله أو بعضه، أخرى تختار جانباً آخر من هذا الخير، وقد تختار عملاً من الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، وهكذا قد تتعدد وجوه الخير في الأمة وتتعدد الجماعات الداعية إلى الخير أو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن مع كثرتها وتعددها وتعدد وجوه نشاطها وعملها هل يؤدي ذلك إلى إيجاد الإسلام في واقع الحياة ؟ ترى لو كفلنا كل يتيم، وأعلنا كل مسكين، وبنينا في كل حي مدرسة، وفي كل شارع مسجدًا، وأزلنا الفقر من ربوعنا،

ولو حفظنا القرآن الكريم تلاوةً وتجويداً، وطبعناه تكراراً لنوفر لكل فرد مصحفاً في بيته وأخر في جيبه وثالثاً في مكتبه، ولو جعلنا كتب الفقه، وفقه جعفر وأبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وابن حزم والأوزاعي متوفرة في كل مكتبة زهيدة الثمن، بل قدمت مجاناً لمن يريدها، ولو جعلنا العلوم من كل فئة متوفرة لكل فرد في الأمة وأقمنا المعاهد والجامعات والمختبرات، ونبغ من أبنائنا من لم يكتف بما وصل إليه العلم بل أبدع واكتشف من الأمور ما لم يسبقه إليه أحد، واخترع من الآلات ما يوفر الرفاهية ورغيد العيش لجميع الناس.

فهل نكون بذلك قد أوجدنا الإسلام في واقع الحياة؟ مع أنها جميعها من أبواب الخير فيه .هل يكون الإسلام موجودا في واقع الحياة والذي يسن القوانين ويضع التشريعات مجلس النواب – البرلمان – ؟

فالمسألة إذن هي إيجاد الإسلام في واقع الحياة، والمعلوم أنه قد أبعد عن الحياة منذ ما يقرب من قرن من الزمان، والأمة بمجموعها آثمة إن رضيت بذلك أو أن قعدت عن العمل للوصول إلى عودة الإسلام للحياة.

عودة الإسلام للحياة

عودة الإسلام لواقع الحياة، أو بعبارة أخرى استئناف الحياة الإسلامية هي فكرة عامة غير محددة، فلا بد من تجسيد هذه الفكرة ووضعها في إطار يحدد معناها ويبين المراد منها، فهي كقول جمهرة الوعاظ والمرشدين " أيها الناس اتقوا ربكم " أو " أيها الناس عودوا إلى ربكم " أو " فروا إلى الله "لذا كان وجوباً أن نبين المراد من القول" استئناف الحياة الإسلامية " أو القول "عودة الإسلام لواقع الحياة".

فالمعنى المراد من هذه العبارة هو جعل الإسلام هو المتحكم بكافة العلاقات القائمة بين الأفراد أو الأعمال التي يقومون بها، مثل العبادات والأخلاق والمطعومات والملبوسات، ومثل البيع والإجارة والكفالة والزواج والطلاق، والمتحكم كذلك بعلاقة المسلمين بغيرهم وعلاقة عامة المسلمين مع غيرهم مثل معاملات أهل الذمة، وبيان ما يجوز لهم وما عليهم، والزواج منهم وأكل ذبائحهم، ومن مثل جواز المعاهدات مع كيانات الكفر، أو حالة الحرب الحكمية أو الفعلية معهم. مرد ذلك كله إلى الأحكام الشرعية التي عالجت هذه الأمور.

القاعدة الأولى: العودة إلى الله تعني السيادة للشرع لا للشعب

وعبودية الأمة لا تتحقق إلا بسيادة الشرع فلا عز لنا إلا بالعبودية لصاحب السيادة ولا مشرع ولاحاكم على أفعالنا إلا هو –سبحانه وتعالى– ولا نشرك معه سيداً، وبمعنى آخر: جعل السيادة للشرع، وهذا نقيض ما عليه المجتمعات الحالية، ونقيض ما يسيطر على أذهان الناس من فكر غربي يقول إن السيادة للشعب فأقاموا المجالس النيابية لتضع لهم التشريعات المنظمة لحياتهم، بينما نحن نؤمن بأن السيادة للشرع وحده، فالأحكام الشرعية التي جاء بها الإسلام، والمأخوذة أو المستنبطة من الكتاب والسنة هي المنظمة لحياتنا وعلاقاتنا ليس غير. منها وضع دستورنا، ومنها أخذت قوانيننا، وليس لأحد في المجتمع أن يتعالى على هذه الأحكام، أو أن يمنح حصانة تحميه من هذه الأحكام.

فالخليفة يخضع خضوعًا تاماً لهذه الأحكام ولا حصانة له، والمعاون أي الوزير يخضع كذلك لهذه الأحكام ولا حصانة له . وكذلك القضاة حالهم كحال بقية الناس بلا مفاضلة ولا تمييز، فالناس سواسية كأسنان المشط ، قال الله تعالى في كتابه الكريم:

{ يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } الحجرات: ١٣، وقال سيدنا محمد ﷺ : ﴿ لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ﴾[1] وقال { فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِيۤ أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } (النساء: ٦٥) ، وقال– تعالى: { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً } (الأحزاب: ٣٦) .

فكان من الواجب توضيح هذه الأفكار العامة التي درجت على ألسنة الوعاظ والمرشدين، دون أن يدرك السامعون المعاني الحقيقية لهذه الأفكار العامة، فإن الواعظ في درسه والخطيب في خطبته يبين لهم أن سبب الانحطاط والتأخر الذي نحن فيه وما نعاني من ظلم وإضطهاد وما نقاسي من سوء الأوضاع الاقتصادية وشغف العيش، سببه البعد عن الله، ويعطيهم العلاج الناجع والبلسم الشافي فيقول لهم: " عودوا إلى الله "أو " فروا إلى الله" لم يبين لهم حقيقة المرض إلا بكلام عام – البعد عن الله – فكان الواجب أن يبين لهم أن البعد عن الله إنما يعني ترك تحكيم شرع الله في حياتهم وقبولهم بالأنظمة الوضعية، وتسابقهم لانتخاب زيد أو عمرو ليكون مشرعاً في مجلس النواب، وترك شريعة الله، والله –سبحانه وتعالى– يقول: { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ أَعْمَىٰ } * { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيۤ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً } طه: ١٢٤ . ومن هنا يكون قد أظهر المرض على حقيقته، وكذلك الحال حين وصف العلاج فقال لهم" عودوا إلى الله"، كان عليه أن يبين معنى العودة إلى الله. فالعودة إلى الله تعني تحكيم شرعه في كل تصرفاتنا، في كل شيء في حياتنا، وقد نفى القرآن الإيمان عمّن لا يحتكم

[1] أورده الألباني في شرح الطحاوية ، رقمه : 361 ، حكمه :صحيح

لشرعه فقد قال تعالى : { فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِيۤ أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } (النساء: ٦٥)

والعودة إلى الله تعني رفض المجالس التشريعية؛ لأننا لسنا بحاجة إلى من يشرع لنا الأحكام أو يسن لنا القوانين، فأحكامنا وتشريعاتنا وقوانيننا موجودة في ديننا، لا ينقصنا شيء من ذلك وقد قال تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) (المائدة:٣)

أما هذه المجالس النيابية – السلطة التشريعية – فقد فرضها الكفار علينا حين استولوا على بلادنا، وطبقوا نظامهم علينا، وأرادوا خداعنا بأننا نحكم أنفسنا بأنفسنا، فهذا مجلس النواب تختارونه أنتم، وهو يتولى تشريع الأحكام نيابة عنكم، ويسن القوانين ليرعى بها شؤونكم، فانطلت علينا الخديعة، واندفعنا في التنافس على اختيار هؤلاء النواب؛ فلأجل العودة إلى الله، ولأجل أن تتحقق فينا تقوى الله لا بد من نبذ هذه المجالس، وبيان أنها آلهة جديدة فرضت علينا، فلا يكفي مخاطبة الناس بالأفكار العامة سواء في تشخيص المرض، أو في وصف العلاج، فالسيادة إذن للشرع وليست للشعب، ولا لمجلس النواب، أو ممثلي الشعب، هذه هي القاعدة الأولى التي تعنيها عبارة (*عودة الإسلام لواقع الحياة.*)

القاعدة الثانية : السلطان للأمـة

من الملاحظ في خطاب الشارع للناس بقوله مرة "يا أيها الناس"، ومرة "يا أيها الذين آمنوا"، ومرة يخاطب الفرد بعينه، ومرة يخاطب المؤمنين كجماعة، ومرة يعطي الصلاحية لكل فرد، ومرة يحصر الصلاحية بجهة معينة –هي الجهاز التنفيذي الذي فرضه الشرع على الناس والمتمثل بالخليفة ومعاونيه.

من هذه الملاحظة نرى أن الخليفة أو الجهاز التنفيذي لا يستطيع القيام بما أوكل إليه من أعمال، وما اختص به من أحكام، إلا إذا أعطته الأمة السلطان ليستطيع بواسطته أن يتفذ ما أنابته عنها بتنفيذه، فلا يستطيع قتل القاتل، أو جلد الزاني، أو قطع يد السارق، أو تجهيز الجيش، أو توقيع معاهدة، أو إعلان حرب، كما لا يقدر أن يبني مسجداً أو يعمر جامعاً أو يشق طريقاً أو أن يرعى محتاجيه إلا إذا وضعت الأمة إمكانياتها بيده، والتزمت بطاعته فيما يرى من سياسة في رعايتها، فالإسلام ألزمها بطاعة الأمير وجعل طاعتها له كطاعتها لرسول اللهﷺ كما جعل طاعتها لرسول الله ﷺ كطاعتها لله، وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } النساء: ٥٩، وقال رسول الله ﷺ ﴿ من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني ﴾[1]

إذن فهذا الذي أنابته عنها له عليها الطاعة، ولها عليه أن يقوم بالأحكام التي كلفها الله بها أي أنها بايعته على كتاب الله وسنة رسول اللهﷺ ، وأن تطيعه ما أطاع الله قال سيدنا أبو بكر﴿ أطيعوني ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لي عليكم القوي منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه والضعيف منكم قوي عندي حتى آخذ له حقه ﴾[2]

[1] أورده البخاري في صحيح البخاري ، رقمه : 7137 ، حكمه : صحيح

وبهذه البيعة كان له السلطان منحته إياه الأمة، ولكنها لا تستطيع استرداد هذا السلطان ما دام هذا الخليفة ملتزماً بالعقد الذي أبرمه مع الأمة، أما إذا قصر بهذا العقد أو خالفه أو عجز عن تنفيذه فإنها تخلعه وتعطيه لغيره بحكم من محكمة المظالم.

ومن هنا كانت السيادة للشرع وليس للشعب أو الناس ,وكان السلطان للأمة تضعه إبتداء في عنق من تريدإلا أنها لا تملك نزعه إلا بما مكنها به الشرع صاحب السيادة، وتحضرني هنا المادة الأولى من أول دستور مكتوب في العالم، ووقع عليه أهل الحل والعقد: الدستور الذي أملاه رسول الله ﷺ على علي بن أبي طالب –كرم الله وجهه– بحضور أهل الحل والعقد من المسلمين والمؤمنين واليهود. فقد جاء في المادة الأولى منه ﴿ محمد رسول الله والذين معه من المسلمين والمؤمنين أمة واحدة من دون الناس ﴾ ۝ كما جاء في مواد أخرى منه ﴿ ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم وهم يد على من سواهم ﴾ ۝ وقد قال الله تعالى في محكم كتابه : { وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } المؤمنون: ٥٢، من هذه النصوص نرى أنه لا يجوز لهذه الأمة أن تنيب عنها اثنين في وقت واحد، ولا أن ينفرد أهل قطر بإنابة أحدهم بل هناك نائب واحد، خليفة واحد، لأمة واحدة، لها كيان سياسي واحد، وقد قال رسول الله ﷺ ﴿ إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما ﴾ [1]وأن هذا الخليفة هو الواجب الطاعة، وهو من أولته سلطانها فعليه أن يرعاها كما أمره صاحب السيادة أي الشرع. ونلاحظ من كلام أبي بكر رضي الله عنه تحديد الطاعة المطلوبة من الأمة، فهي الطاعة التي حددها الشرع وأوجبها على الأمة وبحدود الصلاحيات المعطاة له ,وإلا فلا طاعة."

– القاعدة الثالثة وحدة الامة وراي الامام يرفع الخلاف:

إلا أن هناك نقطة هامة جدا، فالتفاوت بالعقول، والاختلاف في الفهم والعمق والإتساع في معاني النصوص من الكتاب والسنة ,وبخاصة النصوص التي تنظم العلاقات بين الناس .فكيف يمكن أن يجتمع الناس على فهم واحد ,ووجود الإختلاف حتمي؟

[1] أورده مسلم في صحيح مسلم ، رقمه : 1853 ، حكمه : صحيح

نعم إن الإختلاف أمر حتمي، فتفاوت الطاقات في الحس والإدراك بين بني البشر حقيقة لا مراء فيها والمعارف المكتسبة التي تغذي تلك الطاقات كذلك متباينة مختلفة، فالخلفية الثقافية الموجودة عند زيد ليست موجودة عند عمرو، بالتالي فإن فهم النصوص من قبل زيد يختلف عن فهم عمرو لذلك النص، فكيف لا وإن هذه النصوص من قرآن وأحاديث هي أبلغ الكلام وأعمقه، وفيها من العمق والبلاغة ما يعطي أكثر من معنى، وبالتالي فسيصل المفكرون والفقهاء في الأمة إلى معالجات لعلاقات الناس مختلفة ومتعددة . والأمة كما قلنا أمة واحدة، وكيانها واحد، والتزاماتها واحدة والعلاقات بين أبنائها لا بد أن تكون واحدة كي يستقيم الأمر وتنتظم العلاقات وتقضى الحاجات، فمن هنا كان لا بد أن تعطى صلاحية جمع الأمة على فهم واحد والالتزام به إلى من أنابته عنها أي الخليفة. ولهذا جاءت النصوص مبينة هذه الصلاحية، فالقاعدة الشرعية تقول " رأي الإمام يرفع الخلاف " أو " أمر الإمام مطاع ظاهرا وباطناً" ومن هنا نصل إلى قاعدة أساسية أخرى وهي :إن الخليفة وحده له الحق بتبني رأيا مما اختلف فيه الناس، وإلزام الناس به ,وعلى الناس السمع والطاعة مادام أن هذا الرأي الذي تبناه الخليفة له عليه دليل من الكتاب والسنة . وكذلك الحال بالنسبة لتنظيم الأعمال المباحة،كالسير في الشارع، وضبط الأسواق، وتحصيل العلم والماء والكهرباء بل كل ما هو من مرافق الجماعة مما يمكن من الرعاية الحسنة للناس وإعطاء كل ذي حق حقه.

هذه القواعد الثلاث لا بد من إدراكها حين نقول بالعودة إلى الله، أو حين نقول عودة الإسلام إلى واقع الحياة .

الهدف

العلم قبل العمل من القواعد الثابتة في حياتنا كمسلمين أن الفكر يسبق العمل ,ومعرفة الحكم الشرعي في المسألة تسبق مباشرة العمل في هذه المسألة .لأن مباشرة العمل دون معرفة حكم الله فيه يكون إتباع للهوى ,أو تنفيذا لرغبة ,أو تحقيقا لمصلحة ,وقد قال تعالى يٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِص: ٢٦، فالأصل إذن الفكر الذي يؤدي للمعرفة .والملاحظ أن القرأن الكريم قد كرر طلب التفكير عشرات المرات ,وعاب على الذين ينتقلون من الإحساس للعمل في كثير من الأيات ,وقد شبههم بالحيوانات حيثما لا يستعملون عقولهم قال تعالى أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَٱلأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاًالفرقان: ٤٤، وقال { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَئِكَ كَٱلأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ }الأعراف: ١٧٩، والمطلوب في الفكر والتفكير , ليس الفكر الفلسفي أو التنظير ,

بل التفكير من أجل العمل ,وبيان ما يطلب منه ,وكيفية تنفيذه ,ليس المطلوب من التفكير العيش في الخيال ,أو المعرفة من أجل المعرفة كما يقولون ,والعلم من أجل العلم ,بل المعرفة والعلم من أجل العمل ليكون العمل مبنيا على أسس واضحة مسيرا بأحكام دقيقة , مستنبطة من نصوص لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

ومهما يكن من أمر فإن نسبة الجنون إلى قيس بن الملوح قد تواترت ,ولو أن هناك من أنكر وجود هذا الإسم ,أو وجود هذه القصة بكاملها .ونسبوا ما جاء فيها من أشعار إلى أحد متيمي بني أمية هام بابنة عم له ولم يجرؤ على أن يصرخ بذلك فانتحل هذا القول والشعر ينسب إلى قيس بن الملوح .وقد ورد في الجزء التاسع من كتاب الأغاني قصة يرويها إبن وأب ,قال قلت لرجل من بني عامر أتعرف المجنون وتروي من شعره شيئا قال أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروي أشعار المجانين ,إنهم لكثير ,فقلت ليس هؤلاء أعني ,إنما أعني مجنون بني عامر

الشاعر الذي قتله العشق ,فقال هيهات ,بنو عامر أغلظ أكبادا من ذاك ,إنما يكون هذا في اليمانية الضعاف قلوبها ,السخيفة عقولها الصعلة رؤوسها ,فأما نزار فلا.

وسواء أصحت هذه الرواية أم تلك فإن ذلك لا يحط من قيمة الأشعار التي قيلت في هذا الباب – أعني الغزل – باب وأنه وإن لم يكن جديدا في الأدب العربي ,إلا أنه يظهر التطور العظيم الذي تطور على شعر الغزل ,فمن قسوة الصحراء وشظف العيش ,إلى هذه الرقة والعذوبة ,ومن إستهتار أمرؤ القيس إلى عذ رية قيس وأمثاله ,قيم رفيعة موجودة في النفوس صقلها الإسلام وحرسها من الإستهتار والفحش ,حتى ظلت هذه الصفحة المشرقة في تاريخ الأدب العربي ,وقد إنفردت بعنوان خاص بها لا أظن أن له شبيه في حياة الأمم كافة .وإن جاز لنا أن نفاخر بشيء من أشعارنا القديمة فلنا في الغزل العذري كل فخر.

أما تسمية قيس بن الملوح بالمجنون فأرجح أنها صحيحة لما أصابه فعلا من جنون مطبق ,وتصرفاته الدالة على جنونه كسيره عاريا أو غير ذلك ,إلا أنه إرتباط ذلك الجنون بالحب وتعليق السبب على الحب ,هو بيت القصيد ,وهو الذي دفع بين الناس لوصف من يشتهرون بالحب بالجنون أمثال قيس بن ذريح وجميل بثينة وكثير غيره ,مع أن كثير بعيد جدا عن هذه التسمية .أو غيرهم ممن أصيبوا – إن جازت التسمية – بمرض الحب وبلوته .ولا أظن أن المسألة خالية خيالية ,بل إن لكل من هؤلاء قصة مع عشيقته ,والظروف التي حرمته تحقيق رغبته كانت أقسى من أن يجتازها ,فبقي في صراع عنيف بين حياته الخاصة ومحاولاته الوصول إلى تحقيق رغبته .ومثل هذه الحالات قد تصيب الإنسان ليس فقط في مجال الحب ,بل في كل رغبة تتولد في نفسه ويسعى لتحقيقها ,وبمقدار إصراره على نوال تلك الرغبة ,وبقدر الصعوبات التي تجابهه يتقرر مصيره .كالقائد الذي يخطط للوصول لفتح حصن ,أو من يسعى للنجاح ,أو من يعمل للوصول إلى وظيفة ,فهو يحتال بكل الوسائل ويبذل قصارى جهده في تحقيق ذلك . فالفكر بلا عمل سفسطة أو فلسفة أو تنظير ,والعمل بدون تفكير طيش ورعونة وردات فعل , فإقتران العمل بالفكر قاعدة أساسية ثابتة ولكن لا بد أن تكون من أجل غاية معينة وهدف مقصود ,وإلا كان العمل دوران في حلقة مفرغة ,ينتهي حيث ابتدأ والعبث عند العقلاء منقصة , والشراء والبيع بدون قصد الربح سفه .والناظر في أفعال العقلاء يجد أن لكل عمل قصد ,إما أن

يكون قصدا ماديا أو قصدا معنويا روحيا ,كان خلقيا أو إنسانيا .ولأجل أن يكون تحقيق القصد مقصودا وجب أن يكون القصد معروفا ,ليعرف من بعدها إمكانية الوصول إليه وتحقيقه والطريق الموصل إليه. فمن أراد أن يبني بيتا مهما كان البيت كبيرا أو صغيرا فإن التفكير بذلك هو نقطة الإبتداء ,ومن البديهي أن يذهب للمهندس ليضع لذلك الهدف الذي في ذهنه تصميما ,إما مجسما بقطع صغيرة ,أو مرسوما على ورق – خريطة – ثم يحسب التكاليف والإمكانيات ,ثم يختار السبيل المؤدي إلى تحقيق هذا الهدف .فقد يباشر العمل بنفسه وقد يضعه برسم التنفيذ بيد مقاول أو شركة ,ويشرف هو بنفسه على خطوات التنفيذ أو يعين مهندسا بدلا منه للإشراف والمراقبة فالقاعدة العملية الثابتة أن يسبق كل عمل فكر ,وأن يقترن هذا الفكر بالعمل وأن يكون من أجل هدف معين محدد المعالم.

فحين نقول أننا نعمل من أجل عودة الإسلام للحياة فقد حددنا هدفا إلا أنه ليس واضح المعالم ,وصورته ليست مجسمة أو مشخصة في الذهن ,فخطونا خطوة أخرى في سبيل توضيح هذا الهدف فقلنا أن الإسلام لن يعود للحياة إلا إذا إختار المسلمون واحدا منهم يبايعونه على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وعلى السمع والطاعة منهم ,جاعلين أن السيادة للشرع على هذا الرجل المبايع وعليهم هم كذلك ,فحددنا بذلك قواعد ثلاث :

- **الأولى : سيادة الشرع**
- **الثانية : السلطان للأمة**
- **الثالثة : خليفة واحد يطبق عليهم أحكام دينهم ويقوم بجميع ما كلفوا به كافة .**

كما أننا وضعنا قاعدة عملية ثابتة

اهمية المبدأ لا حياة بلا مبدأ

- **أولها** : التفكير العملي وليس مجرد التنظير أو الفلسفة أو الفكر من أجل الفكر , والعلم من أجل العلم
- **ثانيها** : أن يقترن هذا الفكر العملي بالعمل مبتعدين عن العبث أو الدوران في حلقة مفرغة
- **ثالثها** : أن يكون هذا الفكر المقترن بالعمل من أجل الوصول إلى الهدف

الانتصار الحقيقي هو نصرة المبدأ

ولكن حين نقول أننا وضعنا قاعدة أساسية أولى هي سيادة الشرع فماذا نعني بها ,فإذا إصطدمت هذه السيادة بمصلحة الفرد أو بمصلحة الأمة أو بمصلحة الأمير فما هو موقفنا من ذلك .فلا بد أن تكون هذه القاعدة واضحة وضوح الشمس بأنه حيثما يكون الشرع فثم المصلحة وقد قال تعالىفَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِيۤ أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } النساء: ٦٥، لقادة بدون أمة تفقه ما يريدون وتؤمن به وتؤمن بما يجب عليها أن تفعله ,فإنهم لن يتمكنوا من تحقيق هدفهم ,أو الإستمرار فيه.

وضوح نظام الحكم

وهل إقامة دولة وإختيار خليفة يكفي لأن يكون الهدف محددا؟ لا ,لا يكفي من حيث أن فكرة الدولة ومبايعة خليفة أمست غائبة عن الأذهان وأمسى تصورها مشوها أو غامضا , خصوصا ما يتعلق بنظام الحكم فيها أو النظام الإقتصادي ,إنه لمؤلم حقا أن تسمع خطباء المساجد على المنابر يرددون أن نظام الحكم في الإسلام هو الشورى ,وأن الديمقراطية مأخوذة من الإسلام ,وأن السيادة للشعب وهكذا فإن كان هذا حال خطباء المساجد الموجهين للرأي العام ,فما هو حال عامة الناس؟؟ وهناك رأي يقول أن الخليفة يجب أن يكون من أل البيت وذلك لقوله تعالى: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلاَةَ وَآتِينَ ٱلزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً } الأحزاب: ٣٣، ويقابله رأي يقول إن الخليفة لا بد أن يكون من قريش وذلك لقوله ﷺ ﴿الأئمة

في قريش ﴾ [1]ورأي ثالث يقول لا بد للخليفة من أن يكون مجتهدا حتى لا يخضع لأحد برأي ورابع يرى أن الخليفة لا بد أن يكون عربيا ,ويطرح من التعليل ما هو مقتنع به ,فالقرأن عربي ومحمد ﷺ عربي ولا يفهم الإسلام إلا بالعربية ,وفي العرب خصائص ليست في غيرهم وهكذا .

ورأي خاص يقول إن الشروط التي تجب أن تتوفر في الخليفة هي:

- **الإسلام**
- **الرجولة**
- **البلوغ**
- **العقل**
- **الحرية**
- **العدالة**

فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

فلا يصح أن يقال أن الأحكام الشرعية المتعلقة بهذه المسألة وغيرها موجودة ومدونة في الكتب ,وذخيرة المسلمين الفكرية والفقهية تملأ الخزائن والمكتبات فهي أوسع ثقافة ومعرفة في الدنيا .لا يصح أن يقال ذلك ,لأن المطلوب هو وضع هذه الثقافة والأحكام بين يدي الناس لمعرفتها وفي أذهان حملة الدعوة ليبصروا بوضوح ما يعملوا من أجله كما لا يصح أن يقال إنها موجودة في أذهان القادة من حملة الدعوة ,لا يصح أن يقال ذلك لأننا نعلم من السابق إلى أجله ,ولأن الأمة هي صمام الأمان والقوة الحقيقية لإقامة الدولة وإستمرارها ,هذا من جهة ,

وضوح النظام الاقتصادي

ومن جهة ثانية فإن معظم المسائل الفقهية الأساسية والفرعية فيها أكثر من رأي ,وقد يكون الرأي ونقيضه ,هذا يقول إن المزارعة حرام – أي تأجير الأرض للزراعة – فلا يجوز للمسلم أن يستأجر أرضا لزراعتها ولا أن يكريها كذلك ,وذلك لقول رسول اللهﷺ ﴿ قالوا يا رسول الله كما نكري الأرض على النصف قال لا ,قالوا فعلى الربع ,قال لا ,قالوا فعلى الثمن , قال لا ,قالوا على الربع ,قال لا ,إزرعها أو إمنحها أخاك ﴾ [1]وفريق أخر يقول إن تأجير الأراضي الزراعية جائز ولا شيئ فيه ,وذلك لما فعله رسول الله ﷺ مع يهود خيبر ,إذ أنه ﷺ أبقاهم على أرضهم على نصف الثمار ,ولم يلحظوا الفرق بين المزارعة والمساقاة هذا على سبيل المثال ,

الوعي :

إن إنفراد القيادة بمعرفة الهدف ,ومعرفة واجبات الدولة ,ومعرفة واجبات الأمة تجاهها , ومعرفة حقوق الأمة على السلطة .إن الإنفراد بهذه المعرفة إن وجدت ,وإخفاءها عن الأمة ليجعلنا نتساءل عن سبب إخفائه ,وعدم تثقيف الأمة به ,بل عدم تثقيف أعضاء الجماعة أو الحزب بذلك ,فهل هذا الإخفاء تجهيل لهم كي لا يتولون مراقبتهم ومحاسبتهم على أي إنحراف؟ أم هناك أسباب أخرى؟ مع أن الأصل أن توجد الفكرة في الأمة وبشكل صحيح جلي في كلياتها وجزئياتها والحزب أو التنظيم هو اللسان المعبر عن هذه الفكرة ,وهو القائد لهذه الأمة كي يصل بها إلى إيجاد هذه الأفكار والأحكام في الحياة العملية للأمة بإقامة دولة الإسلام وإقامة دولة الإسلام ونظرتها للعالم بأنه دار حرب ,والعداء الطبيعي بين الإسلام والكفر ,والعداء المتأصل في النفوس عند الكفار سيدفعهم إلى مهاجمة هذه الدولة للقضاء عليها وقد يتمكنون من ذلك ,فوجود حزب سياسي هاضم لفكرته مبصر لطريقته يسهل عليه إعادتها مرة أخرى .فإذا قضى الكفار على هذا الحزب كذلك كانت الفكرة في الأمة وسرعان ما ينشأ على هذه الفكرة حزب أخر يتولى قيادة الأمة ,لا أن نخفي عنها وعن أعضاء التنظيم الواحد ,ولا يقال إن رسول الله ﷺ لم يبين هدفه للناس ولا لحزبه وتنظيمه ,لا يقال ذلك لأن واقع الرسول في هذه المسألة يختلف تماما .فالرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين كانوا مستسلمين للوحي ,ولم يكن تشريع أحكام الدولة والقيادة قد نزل ولهذا كان عمل الرسولﷺ ودعوته تقويم على الإستسلام للوحي , فالتوجيه والأوامر من الله سبحانه وتعالى .نعم كانت دعوته الإيمان بما تعنيه كلمة " لا إله إلا الله

محمد رسول الله " حتى إن قريش قد أدركت ما تعنيه العبارة فتصدت لها ,نعم لقد أدركت قريش أن هذه العبارة تعني إنتزاع الزعامة والرئاسة والقيادة منها وجعلها بيد محمد ,ﷺ هذا ما فهمته قريش والعرب ,وإلا فقد كان في العرب فئة تدعوا إلى التوحيد ,فئة الحنيفية أمثال ورقة بن نوفل والقس بن ساعدة الأيادي وأمثالهم ,وقد كانوا يدعون لفكرتهم ,وخطبة القس بن ساعدة الأيادي مشهورة في التاريخ وفي الأدب العربي ﴿ أيها الناس من مات فات وما هو أت أت....يقسم قس بالله قسما لا إثم فيه أن لله دينا خيرا من دينكم الذي أنتم عليه ﴾[3]

وهكذا في معظم المسائل العامة المتعلقة بنظام الحكم ,من صلاحيات الخليفة ومتى يعزل ,ومن يعزله ,ومجلس الشورى ,ومحاسبة الخليفة إلى غير ذلك من الأحكام الكلية والفروعية.

ومثل نظام الحكم مثل النظام الإقتصادي وغيره من النظم ,فلا بد للعاملين في هذا الحقل ,حقل الدعوة للإسلام ,ولعودة الإسلام لواقع الحياة أن تكون عندهم تصور شامل لما يريدون ,تصور للدولة التي يريدون إقامتها ,بدستورها وقوانينها ,بأجهزتها وأركانها ,ولا يكفي أن يدعى إليها بألفاظ عامة ,وأفكار مبهمة ومما يتردد على المنابر ,وما يلقى في المحاضرات ,وما تعقد عليه الدروس ما يبعث على الأسى ويميت القلب ,تسمع للخطيب أو المحاضر وهو يتحدث عن النظام الإقتصادي – وهذا الموكل إليه تثقيف الناس وتوجيههم – فيقول لو أخرج المسلمون زكاة أموالهم فقط لأصبحنا أغنى أمة على وجه الأرض ,ولبنينا المدارس والمعاهد والمستشفيات ,وعبدنا الطرق والشوارع ,وأقمنا الجسور وحفرنا الأنفاق ,لو أنفق المسلمون زكاة أموالهم لأضحت بلاد المسلمين جنات تجري من تحتها الأنهار ,فالزكاة هي النظام الإقتصادي الأمثل ,هذا ما يتردد كل يوم عند النابهين من الخطباء والمرشدين ,فهل هي الحقيقة؟ أم أنها إن دلت على شيء فإنما تدل على جهل كامل بالنظام الإقتصادي أو السياسة الإقتصادية ,مثله مثل الخطيب الذي يقف على المنبر ليبين للناس أن الإسلام هو دين الديمقراطية ,وأن الإسلام يقوم على نظام الشورى ,ألم يفكر هذا العالم الإقتصادي الخطيب قليلا ليعرف ما هو الأساس الذي يبنى عليه الإقتصاد ,فالمعروف أن المال مال الله ,جعل الناس مستخلفين فيه ,وإن امتلاكهم له لا بد أن يكون بإذن منه ,من حيث أن الملكية هي إذن الشارع بحق الإنتفاع بالعين ,ألم يسأل ما هي الأعيان التي يجوز للفرد أن يمتلكها ,والأعيان التي يحق للدولة أن تمتلكها ,والأعيان التي

هي ملكية عامة لا يجوز للفرد أو للشركة أو للدولة أن يمتلكها ,أو تستأثر بالإنتفاع بها فهي ملك للعامة ,ملك لجميع الناس ,هي ملكية عامة ,إمتاز الإسلام عن غيره من النظم الإقتصادية في العالم بهذا النوع من الملك ,فالشيوعية مثلا كانت ترى أن كل ما في الوجود ملك للدولة , والنظام الحر الرأسمالي يرى أن كل ما في الوجود ملك للفرد ,بينما يرى الإسلام أن هناك ملكية فردية منقولة أو غير منقولة وملكية دولة كذلك ,وثالثة إمتاز بها هي الملكية العامة ,والتي تعتبر غائبة تماما عن أذهان المسلمين ,بل لا يعرفها إلا من رحم ربي ,لأنه ممنوع عليهم أن يعرفونها وذلك لسببين رئيسيين :

- **الأول كي لا يفكر المسلمون بإسلامهم وما فيه من معالجات إقتصادية تشدهم للبحث في إقامة دولة الإسلام**
- **و أما السبب الثاني كي لا يطالبوا حكامهم بنصيبهم من أموالهم**

فهل يعرف هؤلاء الخطباء والموجهون عناصر هذه الملكية العامة,وكيف يتم رعايتها أو تنميتها , أو الإنتفاع بها.

كلهم قرأ أو سمع قول رسول اللهﷺ ﴿ الناس شركاء في ثلاث : الماء و الكلأ و النار ﴾ [1]والبعض منهم أو كلهم سمع قول رسول الله ﷺ ﴿ منًى مُنَاخُ مَنْ سَبَقَ ﴾[2] وبعضهم قرأ أو سمع قصة أبيض بن جمال ,وإقطاع الرسول ﷺ جبلا له ,ولما أبلغ أن فيه معدن الملح قال رسول الله ﷺ إذن فلا ,وكلنا يعلم أن رسول اللهﷺلا يعود بهبته إلا لأمر عظيم.

هل علم من قرأ أو سمع أن هذه القصة تعني أن جميع المعادن في باطن الأرض كالذهب والفضة والحديد والنحاس ,والزئبق والغاز والنفط هو ملك للناس ,هو ملك للمسلمين . فليس للشركة ولا للدولة ولا للعائلة المالكة وليس لأحد أن ينتفع بشيء منه إنتفاعا دائما إن كان بذلك يمنع ولو واحدا من الناس من حق الإنتفاع.

[1] أورده ابن تيمية في مجموع الفتاوى ، رقمه :219 / 29 ، حكمه : معروف رواه أهل السنن
[2] أورده الترمذي في سنن الترمذي ، رقمه : 881 ، حكمه : حسن صحيح

وإن هذه المسألة تختلف عما يشيرإليه بعض الفقهاء من الركاز فإن فيه الخمس للدولة وأربعة أخماس لصاحب الأرض أو المستثمر فقد خلطوا بين المعدن الدائم واللقطة .لم يفرقوا بين ما ركز بفعل الإنسان وما هو طبيعي ,بين ما هو محدود وبين ما هو بمنزلة الماء العد.

هذا من حيث طبيعة الملكية ,وهناك موضوع الأعيان التي يجوز أن تمتلك والتي لا يجوز أن تمتلك .ثم هناك البحث في كيفية التملك ,ثم هناك موضوع الصرف والإنفاق .وما الذي أوجبه الله في هذا المال .وما الزكاة سوى جزء تعبدي بسيط لا تدخل في النظام الإقتصادي من حيث أنها محددة المورد .كما أنها محددة وجوه الصرف في أنواعها الثمانية فلا علاقة لها بالنظام الإقتصادي ,وإنما بيت المال هو حرزها حتى يتم صرفها في وجوهها.

و مثل هذا البحث في أصول الإقتصاد لا بد من معالجة مسألة إستفحل خطرها في العالم أجمع ,وهي فرض الضرائب على المواد الإستهلاكية كضريبة الجمارك أو أي ضريبة أخرى ,فخذ أن الفقير المستهلك هو الواقع تحت عبئ الضريبة ,أما التاجر والمستورد والصانع فإنه يضيف هذه الضريبة على ثمن السلعة ,فهل بين هؤلاء الخطباء والدعاة أنه لا يجوز فرض ضريبة على المواد الإستهلاكية كضريبة الجمارك .وقد قال رسول اللهﷺ ﴿ لا يدخل الجنة صاحب مكس﴾ [1] و هل بينوا أنه لا يجوز للدولة أن تفرض أية ضريبة على الناس إلا في حالات إضطرارية محددة وتكون على الأغنياء منهم ,كما أنها لا يجوز لها أن تأخذها من الملكية العامة.

مثل هذه الأمور في النظام الإقتصادي أو في السياسة الإقتصادية لا بد للدعاة من توضيحها للناس ,فكيف إن كانت مبهمة عند الدعاة أنفسهم ,ففاقد الشيء لا يعطيه .وكما قلنا في نظام الحكم والنظام الإقتصادي لا بد لنا من معرفة علاقة المسلمين بغيرهم ,وعلاقة عامة المسلمين مع غيرهم ,ناهيك عن العلاقات القائمة بين هذه الكيانات السياسية المتعددة القائمة في بلادهم .وهذه مشكلة هامة جدا فما هو موقفهم إن من الله عليهم بالنصر تجاه الكيانات القائمة في العالم الإسلامي ,وما هي الحالة التي تتخذ معها ,وهل يتم الإعتراف بها؟ وهل تدعى

[1] أورده أبو داود في سنن أبي داود ، رقمه : 2937 ، حكمه : سكت عنه (وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح)

للإنضمام؟ لا بد من أن يكون الأمر واضحا جليا ,لأن هذا الأمر يعترض الدولة منذ اللحظات الأولى .هذا بالنسبة للكيانات القائمة في العالم الإسلامي ,فكيف بالأمم الأخرى وكياناتها.

وهل سطروا في كتبهم أو وضعوا في تصورهم أن العالم داران ,دار كفر ودار إسلام وهل حددوا معنى كل دار ,وهل توضح لديهم أن دار الكفر هي دار الحرب ,وأن دار الحرب إما أن تكون دار حرب حكما أو دار حرب فعلا ,وأي دولة يجوز إقامة المعاهدة معها ,بل وأي نوع من المعاهدات ,وما هو الموقف من الأمم المتحدة ومنظماتها وقوانينها ,كل هذا أمر حتمي معرفته منذ الأيام الأولى بل إن بعضها منذ اللحظات الأولى ,وليس هناك متسع للبحث والتنضيب عن حكمها في مؤلفات الفقهاء السابقين.

فقد يقول قائل إن قيادات الحركة تعرف كل هذه الأمور ولا حاجة لتدوينها وطرحها للناس حتى لا يعرف أعداء الإسلام ما نبيت لهم من أمر ,فهل ضمن هؤلاء وأخذوا المواثيق على الله أن القيادة التي تعرف هذه الأمور ستبقى حية حتى قيام الدولة وتسيير أمورها والنهوض بها ,ألا يخشون أن يفاجئ الموت من عنده هذه المعلومات ,فكيف تسير الأمور من بعده؟ بل ولم تقتصر المعرفة على هذا النفر من الناس ,والله سبحانه وتعالى يقول لرسول: { قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِيٓ أَدْعُو إِلَىٰ ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ } يوسف: ١٠٨ ، هذا غيض من فيض ,وقليل من كثير مما يجب على الحركات الإسلامية أن تعيه قيادة وأفرادا , وأن تعمل على توعية الأمة بمجموعها عليه ,فالأصل غرس الفكرة في الناس وتغذيتها ورعايتها حتى تنمو وتكبر ,فلو أقيمت الدولة وتمكن الكفار من القضاء عليها ,إستطاعت الكتل الواعية على إعادتها مرة بل ومرات .وإن قضي على هذه الكتل الواعية ,وكانت الفكرة قد نمت وترعرعت في الأمة ,إستطاعت الأمة أن تنشئ كتلا أخرى تعيد بناء الدولة ,فلتتضافر جهود هذه الكتل لغرس هذه الأفكار في الأمة .نعم إنه من المستحيل إجتماع هذه الكتل في تنظيم واحد , وذلك للتباين الطبيعي في العقليات ,والإختلاف الحقيقي في الفهم ,والتفاوت في الثقافات المكتسبة ,إلا أنه من الطبيعي أن يجري التعاون والتنسيق فيما بينها لرعاية هذه الأفكار وتنميتها , حتى يشتد سوقها ,وتؤتي أكلها بإذن ربها .ولا يعني التعاون بينها الإقرار بما عندها من مفاهيم وما تبنت من أفكار ,كما لا يعني تأييد الطريقة أو الأساليب المتبعة بينها ,بل لا بد أن يكون

التعاون مبنيا على الصراحة الكاملة ,وبيان ما ترى كل فئة عند الأخرى من أخطاء ,وأن يكون الحوار البناء هو الأسلوب الأمثل للوصول إلى التعاون .أما ما يجري الأن من طعن وتجريح وسب وشتم وإتهامات ما أنزل الله بها من سلطان ,فإن هذه أساليب هدم وتنفير وعداوة .كما أنها تجعل الأمة تنفر من كل حزب أو تنظيم ,وتبتعد عن كل تكتل سياسي .وفي هذا خدمة لأعداء الأمة الذين يحاولون غرس فكرة إن الدين لا دخل له في السياسة .لله أبوهم ,وهل ينقذ الأمة ويرفع شأنها ويعيد لها عزتها ومجدها إلا العمل السياسي .

البحث في الطريقة

بعد أن تلاشت فكرة اعتزال العامة أو كادت ,وعاد معظم الناس عن الفهم الخاطئ لقوله تعالى : { يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } المائدة: ١٠٥، وأصبح معظم المسلمين مؤمنين أن العمل للعودة إلى الله فرض، وأن العمل الفردي لا يجدي بل لا بد أن يكون العمل في كتلة لها أمير، ولها خط سير واضح، ولها سياسة معينة. ووجدت على هذا الأساس جمعيات وتنظيمات وكتل وأحزاب كلها تدعو لعودة الناس إلى الله، وعودة الإسلام إلى واقع الحياة، إلا أنها اختلفت في طريقة عملها، وفي فهمها لكيفية الوصول إلى بغيتها(عودة الإسلام لواقع الحياة).

ولست هنا بصدد مناقشة خط سيرها وما تبنت من أفكار وما تقوم به من أعمال، ولا بصدد ما يجب أن تباشره اقتداء وتقيدًا بأسلوب القرآن الكريم ومنهجه ابتداء من مهاجمة أفكار الكفر، وتوضيح العقيدة الإسلامية وضرب أئمة الكفر – الحكام – وتعريتهم، وفضح العلاقات الفاسدة القائمة بين الناس، فقد بحثت هذه المسألة في كتاب آخر﴿ نهج القرآن الكريم في الدعوة ﴾ .[1]بل المراد هنا في البحث :الطريقة التي يرى كل من هذه الكتل والتنظيمات أنها السبيل الموصل لتحقيق فكرته وإدراك غايته – أي عودة الإسلام إلى واقع الحياة – ويمكن مناقشة هذه المسألة مع الجميع معتبرين أن هذه الفئات جميعها تتمتع بالإخلاص الخالص والإيمان الكامل ,ولست بصدد مناقشة أراءها ومواقفها السياسية ,بل من حيث خط سيرها الفكري والعملي فيما ترى فيه أنه الطريق الموصل إلى تحقيق عودة الإسلام لواقع الحياة، ويمكن تلخيص ذلك في مجموعات تتشابه في الطريق، تختلف بالأعمال والأشخاص.

الفئة الأولى :الجمعيات الخيرية

هناك مئات الجمعيات الخيرية المنتشرة في كل قطر من أقطار العالم الإسلامي ,وقد تناولت كل فروع الخير، إبتداء من تدريس القرأن الكريم وتجويده وتلاوته وحفظه وإنتهاء بمؤسسات الرعاية الإجتماعية كالتطبيب والتعليم مرورا بالتربية الدينية وحلقات الذكر ,وتعريجا

على النوادي الرياضية ﴿ علموا اولادكم السباحه والرمايه وركوب الخيل ﴾[1] وقد ضمت هذه الجمعيات في صفوفها بين أعضائها مئات الألاف بل الملايين في العالم الإسلامي ,فلا تكاد تخلو قرية أو مدينة بل حي من الأحياء ,من جمعية أو أثار جمعية كمدرسة أو مستوصف أو مركز رعاية أو غير ذلك .وكل منها يرى أنه على الطريق المستقيم، وأن عمله هو العمل الحق ,وأنه وإن كان لا يوصل إلى إقامة حكم الله في الأرض بإيجاد دولة إسلامية ,إلا أن الدولة الإسلامية لا توجد على الأرض حتى توجد في النفوس .وكيف يمكن أن تقام في النفوس وهي بعيدة كل البعد عن نفوس أعضاء ومؤسسي هذه الجمعيات، بل إنهم لا يؤمنون بالعمل السياسي إن لم يكن يحرمونه. وفكرة وجود دولة إسلامية هي فكرة سياسية بحد ذاتها، وكل فكر يتعلق برعاية شؤون الناس هو فكر سياسي. ومع ذلك تجد الآلاف من الطيبين الأتقياء ينخرطون في هذه الجمعيات للقيام بأعمال خيرة لتخفيض العبء عن أبناء هذه الأمة وإيمانا منهم بأن الله لا يضيع أجر المحسنين.

كما ولست بصدد بيان بعض هذه الجمعيات أو التعرض لبعض الأعضاء في هذه الجمعيات الذين إتخذوا منها وسيلة لتحقيق أغراض دنيوية، و الحصول على مكاسب مادية ,لا أريد أن أخوض في هذا الأمر .حيث أنني إفترضت في الجميع الإيمان المطلق ,والإخلاص الخالص ,ولهذا فإن الرد لا بد وأن يكون على هذا المستوى .فالسؤال الذي أطرحه الأن على جميع العاملين في مجال الجمعيات والذين دفعهم إيمانهم للعمل في سبيل الله ,لتخفيف بعض الأعباء عن بعض المسلمين بقضاء بعض المصالح لهم .سؤالي لهؤلاء المؤمنين هو :هل قام رسول الله ﷺ وهو في المرحلة المكية التي تشبه ما نحن فيه ,بمثل ما يقومون به من أعمال وهل كلف أحدا من صحابته القادرين أمثال أبي بكر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وضوان الله عليهم أجمعين بمثل هذه الأعمال .أو شراء بعض الأرقاء من المؤمنين الذين يقاسون ألام العبودية والإضطهاد ,أو تغطية حاجة المحتاجين من فقراء الصحابة أو غيرهم من الناس ,وأعني في المرحلة المكية من حيث أن المرحلة المدنية تعني وجود الدولة الإسلامية المتكفلة برعاية شؤون جميع الناس ,فإن لم يقم بهذا الأمر رسول الله ﷺ ولا صاحبته الكرام ,فهل أنتم أشد غيرة منهم؟

[1] لم ترد ركوب الخيل في رواية..

إن هذه الطاقات الهائلة التي تتمتعون بها ,والقدرات العظيمة التي خصكم الله بها ,لم لا توضع في الطريق المؤدي لوجود الإسلام في واقع الحياة؟

لم تجعلون من يسير معكم أو يمدكم بالعون أنه قام بما أوجب الله عليه ,فلا على عثمان بعد ذلك .ألم تعلمون – وأنتم حقا تعلمون – أن الإسلام أوجب على جميع أتباعه أن يجعلوا مصيرهم موهون بوجوده في الحياة ,إنكم تقرأون وترددون دائما قوله تعالى :{ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلإِنْجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ } التوبة: ١١١، كما أنكم تقرأون في كل صلاة دعاء الإستفتاح الذي فيه { قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ } الأنعام: ١٦٢، ولا تكون هذه الإمكانات الضخمة موضوعة على طريق الوصول بالإسلام إلى المكانة اللائقة به ,سيادته على العالم وتحقيق ما وعد الله سبحانه وتعالى: { هُوَ ٱلَّذِيۤ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ } الصف: ٩.

إصلاح الفرد وإصلاح المجتمع

يتبادر إلى الذهن أن المجتمع مكون من أفراد وبناء عليه فإن صلاح الفرد يؤدي حتما إلى صلاح المجتمع ,وقد هيمنت هذه الفكرة على أذهان الكثير من الناس واتخذها بعضهم قاعدة أساسية لطريقته في الوصول إلى صلاح المجتمع ,وبما أن المجتمع مكون من أفراد قالوا أصلح الفرد يصلح المجتمع .وقامت تكتلات وأحزاب سياسية على أساس هذه القاعدة ,وشقت طريقتها ملتمسة إصلاح أفراد المجتمع لتصل من ذلك إلى إصلاح المجتمع بكامله ,من أجل ذلك لا بد من مناقشة مكونات المجتمع حتى نصل إلى مناقشة الفكرة ومدى صلاحيتها ,فهل حقيقة أن المجتمع مكون من أفراد وهل حقيقة أنه إذا صلح مجموع الأفراد أو غالبيتهم يصلح المجتمع ,فإن كان ذلك كذلك فالقول صحيح وإلا فلا بد من معرفة ما يصلح الفرد وما يصلح المجتمع.

إن هذه الطاقات الهائلة والجهود المبذولة في أعمال البر ,وتخفيف الأعباء عن بعض المسلمين إنما هي أعمال خير نسأل الله لفاعليها الأجر والثواب ,ولكن بودي أن أسأل هؤلاء الناس ,هل القيام بالأعمال المندوبة ,وبذل الأموال في الأمور المستحبة تسقط الواجب , ويستعاض بها عن الفرض ,فهل يقدم المندوب على الواجب؟ وما حكم الإنشغال بالمندوب وترك الفرض؟

إن إفتتاح جمعية للمحافظة على القرأن الكريم ,أو لتجويد التلاوة ,أو إفتتاح مستوصف لمدواة المرضى ,أو جمعية لمحو الأمية ,أو تقديم المساعدات للمحتاجين ,أو جمع الصدقات والتبرعات من المحسنين وتوزيعها على المستحقين ,كلها وأمثالها أعمال خير والحمد لله ,وأمتنا معطاءة كريمة ,كما أن فيها من الرجال المفطورين على النظر في الأمور العامة ,ممن يبذل قصارى جهده ,بل أقول بياض نهاره وزلفا من ليله لا يكل ولا يمل في خدمة الناس والبحث عن حاجاتهم ,أمة معطاءة ورجال قادة ولكنهم انشغلوا في المندوبات ,وغاصوا في المستحبات فأضاعوا الواجبات .وظنوا أن تولي هذه الأمور المستحبة أولى من التلبس بالواجب ,أو أن هذه

الأمور المندوبة تسقط عنهم الواجبات المفروضة .هذا بالنسبة للعاملين في هذه الجمعيات والقائمين عليها .أما أثرها في الناس فإنهم يجعلونها مقياسا لمحاسبة الحركات السياسية العاملة , فالناس عبيد مصالحهم .ولذلك فإنهم يهاجمون الفئات السياسية ويقولون ماذا فعلتم للناس؟ ماذا قدمتم للمجتمع؟

لقد بحثت هذه المسألة بتفصيل في كتاب أخر لي) كتاب النهضة ,(ولا بأس من بحثها هنا مرة أخرى لعلنا نصل إلى حقيقة تؤدي إلى تغيير مسار كامل عند بعض التكتلات والأحزاب راجيا أن تدرس هذه الفكرة دراسة جدية بعمق وإستنارة ,وهذا يقتضي معرفة مكونات الفرد ,وما الذي يحدد صلاحه وفساده.

فبالنظر إلى الفرد والفطرة التي فطره الله عليها نجد أنه كائنا حيا فيه تركيب عضوي يحتاج بقائه إلى حاجات عضوية لا بد من توفرها له وتمكينه من أخذها ,منها ما يأخذه طبيعيا من الهواء المحيط به كالأكسجين وغيره ومنها ما يقوم على توفيره وتناوله عن طريق الفم كالطعام والشراب والغذاء .فالطاقة الحيوية الفاعلة في هذا الكائن الحي توجد في نفسه الرغبة أو الجوعة لتناول ما ينقص من هذه المواد التي يحتاجها الجسم ,فيدفع للبحث عنها لتناولها ويشبع تلك الجوعة العضوية الحاصلة ,أو أخرى لطرح ما تلف فيه من خلايا أو مواد تالفة يريد التخلص منها ,وأعني بذلك كله حاجة الجسم للغذاء والماء ,وقضاء الحاجة للتخلص من الفضلات .هذا جانب من حاجة هذا الكائن الحي وهو الجانب العضوي وهناك حاجات أو جوعات من نوع أخر .حاجات أو جوعات نفسية يتعلق بها الحفاظ على بقائه أو الحفاظ على إستمرارية نوعه وسلالته ,أو اللجوء إلى مواطن الطمأنينة والأمان عند فزعه وخوفه .وهذا ما يطلق عليه الحاجات أو الجوعات الغريزية كغريزة حب البقاء أو غريزة النوع أو غريزة التدين .هذه مجمل الجوعات الحاصلة عند هذا الكائن الحي والتي تسبب الطاقة الحيوية فيه الإندفاع لإشباع هذه الجوعات.

كما أنه من الفطرة أيضا أن يمتاز هذا الكائن الحي الذي خلقه الله في أحسن تقويم – من الفطرة فيه أن الله تعالى قد وهبه القوة العاقلة التي يميز بين المواد والوسائل المشبعة ,وتكون لديها المفاهيم المتعلقة بالأشياء من حيث كونها تشبع جوعه أو لا تشبع .إلا أن هذه الهبة التي إختص بها هذا الإنسان وكرمه بها كان لها ثمن باهظ التكاليف ,فقد حمله بالمقابل أمانة السير

بحسب ما شرع له من أحكام ألزمه بالسير بحسبها ,وبين له الخير والشر .فهداه النجدين { وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَينِ } البلد: ١٠، وجعله مسؤولا عن كل عمل يقوم به مهما كان صغر فقال تعالى { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ } * { وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } (الزلزلة: 7–8) ، ألزمه بهذه الأحكام المنبثقة من الرسالة التي جاء بها رسوله محمد .ﷺ وبينت له هذه الشريعة المواد التي يجوز له أن يشبع جوعاته منها ,والمواد التي لا يجوز أن يشبع منها ,كما بينت له كيفية الإشباع ,كما بينت له معنى وجوده في الحياة وكيف عليه أن يجتاز هذه المرحلة لينتقل منها إلى الدار الأخرة التي يتم فيها الحساب عما كسب وإكتسب في الحياة الدنيا .وهناك الحياة الأبدية في نعيم مقيم أو الجحيم الدائم .وهنا يتقرر لدينا متى يكون الإنسان صالحا ,وما هي مقاييس الصلاح والفساد ,لهذا الإنسان المطلوب صلاحه.

من هذا الإستعراض السريع لمعرفة مكونات هذا الكائن الحي ,هذا الفرد المطلوب إصلاحه .رأينا أن الأمر لا يتعلق بشكله أو لونه أو هندامه أو ,–––– ولا بقوته أو ضعفة ,وإنما يتعلق بكيفية سيره في الحياة في إشباع جوعاته العضوية ,أو حاجاته الغريزية ,والأساس الذي تنطلق منه هذه الكيفية ويمكن تلخيص ذلك بما يلي:

- أولا :عقيدته التي هي القاعدة الأساسية التي ينبثق عنها معالجات مشاكله أي الأحكام الشرعية التي تنظم حياته.
- ثانيا :تنظيم علاقاته بخالقه وإلتزامه بما فرض عليه من عبادات والتقرب إليه بما أرشده إليه من مندوبات.
- ثالثا :الصفات التي يجب عليه أن يتحلى بها في حياته وعلى رأسها حسن الخلق على أن تكون هذه الصفات بما بينته له الأحكام المنبثقة من تلك القاعدة أي العقيدة ,ثم الترفع عن الصفات التي ذمتها تلك العقيدة.
- رابعا :تنظيم معاملته لنفسه أو تعامله مع غيره من الناس أو الأشياء كما بينته له العقيدة كذلك وتركت له مقياس الحلال والحرام مقياسا دقيقا يضبط سلوكه ومعاملاته.

هذه الأمور الأربعة هي المقومات التي تحدد صلاح الفرد وهي العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة .فبمقدار إيمانه وإلتزامه بالعقيدة وما ينبثق عنها من أحكام وتشريعات تنظم سلوكه , وقيامه بالواجبات المفروضة عليه وما ---- الواجبات من مندوبات يتقرر صلاحه وقوام شخصيته.

وأعني بذلك أن أعلى مرحلة نصل بها في صلاح الفرد هي أن يلتزم بالعبادات قولا وعملا فيصلي الفروض الخمسة سبعة عشر ركعة ويصلي من النوافل ما شاء الله حتى تربو المائة ويصوم رمضان ويتبعه بست من شوال ثم يصوم صوم داوود عليه السلام وينفق أمواله بحيث أنه يمسي ولا يملك النصاب فلا تجب عليه زكاة ,ويحج ويعتمر كل عام ,ويختم المصحف كل أسبوع وقد حفظه على قلبه ,تراه يسير وترى شفاهه لا تفتر عن التسبيح والحمد والإستغفار ,لا يرتاح إلا بجلوسه في المسجد ينتظر الصلاة ,فهل بعد هذا من عبادة؟

ديدنه الإنحناء إحتراما لمن هم في سن ابويه دائم الإبتسامة لزملائه وأقرانه ,صادق الحديث ,غضيض البصر ,وفي العهد أمين ,صادق السريرة ينبض قلبه عطفا وحنانا على الأطفال أيا كانوا ,لا تنظر عينه لمحرم ,ولا تستمع أذنه إلا لترتيل القرأن ولا ينطق لسانه إلا بالذكر .فهل بعد هذا الخلق من خلق؟

من البديهي أن لكل إنسان مصالح يسعى لقضائها ,وكذلك صاحبي يعتمد على نفسه بقضاء مصالحه ,إلا أنه لا يعتبر المصلحة مصلحة إلا إذا إعتبرها الشرع مصلحة ,ويقوم على قضائها بالإسلوب الذي يحدده الشرع .فمقياس الحلال والحرام دوما تحت ناظره ,فهو مقياسه الحقيقي ووجهة نظره في الحياة ,يبتعد عن المكروهات إبتعاده عن المحرمات ,فهي يقول من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

ترى من تمتع بهذه الصفات الأربع هل يعتبر رجلا صالحا؟

نعم إنه رجل صالح ولا شك ,فهو المتصف بكل الصفات التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ,إنه رجل صالح ولا شك فقد تلبس بكل مقومات الفرد في الحياة الدنيا ,فلا مزيد

على ذلك إلا الإستشهاد في سبيل الله ,والأن نلقي نظرة فاحصة على المجتمع لنعرف مكوناته , ثم لنبحث متى يكون المجتمع صالحا وما هي السمات التي تجعلنا نطلق عليه أنه مجتمع صالح.

المجتمع هو جماعة من الناس إجتمعوا على العيش في مكان واحد ,فكان من البديهي أن تنشأ فيما بينهم علاقات دائمة ,ومن البديهي أيضا أن تكون هذه العلاقات مسيرة بمفاهيم ومقاييس وقناعات إرتضتها الجماعة ,أو رضيت بالخضوع لها وتنظم علاقاتها بموجبها.

إن هذه الجماعة المكونة لهذا المجتمع لها علاقات داخلية فيما بينها إحتاجت إلى نظام ينظمها ,فوضعت قوانينه من تلك المفاهيم والمقاييس والقناعات ,تلك القوانين التي يتم يموجبها قضاء مصالحها.

كما أن لهذه الجماعة علاقات مع غيرها من المجتمعات ,سواء أكانت علاقات مودة وحسن جوار أم علاقات حرب حكمية أو فعلية ,ولهذا كان لا بد لهذه الجماعة من تنظيم لهذه العلاقات وتحديد لها.

و من أجل تنفيذ هذه العلاقات وإلتزامها بالقوانين المرعية لا بد من وجود سلطة تقوم على تنفيذ هذه القوانين والمحافظة عليها سواء ما يتعلق بالعلاقات الداخلية أو ما يتعلق بالعلاقات الخارجية ,والسلطة هذه تأخذ صلاحيتها وقوتها من الجماعة ,وليس من فرد أو مجموعة أفراد.

وعلى رأس هذه العلاقات المطلوب تنفيذها:

- **حمايتها من أي غزو قد تقوم به جماعة أخرى تطمع بالإستيلاء على خيرات هذه الجماعة ونهب ثرواتها ,وهذا يتطلب تأسيس جهاز بضبط الأمن الداخلي ويضبط الأمن الخارجي كالجيش والشرطة مثلا ,وبديهي أن هذا ليس من صلاحية الفرد بل من صلاحية السلطة التي إختارتها الجماعة.**

- **تحتاج هذه الجماعة إلى أشياء ضرورية لا بد من توفيرها للجماعة كالتطبيب والتعليم وإيجاد المرافق العامة كالشوارع والطرقات والماء والكهرباء وأمثالها , فعلى هذه السلطة المختارة أن تقوم على توفير هذه الأشياء الضرورية في حياة الجماعة.**

- **قد يخرج فرد أو أفراد على مفاهيم وقناعات هذه الجماعة ,فيصيبهم ما ذكر في الحديث الشريف إن قوما إستهموا سفينة فأخذ كل منهم مكانه ,فتناول أحدهم فأسا وأخذ ينقر مكانه فقالوا له ماذا تصنع ,قال إنه مكاني اصنع فيه ما أشاء , فإن هم أخذوا على يده نجا ونجوا ,وإن تركوه هلك وهلكوا.**

ففي الحديث الشريف قال رسول اللهﷺ ﴿ مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْمُدْهِنِ فِيهَا)أي المداهن (كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فِي الْبَحْرِ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا يَصْعَدُونَ فَيَسْتَقُونَ الْمَاءَ فَيَصُبُّونَ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلاَهَا، فَقَالَ الَّذِينَ فِي أَعْلاَهَا :لاَ نَدَعُكُمْ تَصْعَدُونَ فَتُؤْذُونَنَا !فَقَالَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا :فَإِنَّا نَنْقُبُهَا مِنْ أَسْفَلِهَا فَنَسْتَقِي، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ فَمَنَعُوهُمْ نَجَوْا جَمِيعًا، وَإِنْ تَرَكُوهُمْ غَرِقُوا جَمِيعًا ﴾[1]

هذه نتيجة حتمية لمجتمع فسح المجال أمام الخارجين عليه ,فمن تقدم على ردع الفرد أو الأفراد الذين يخرجون على أعراف وتقاليد ونظم ذلك المجتمع .إن من المفاهيم المغلوطة السائدة في المجتمع ,والتي أدت إلى إنحلاله وإنحطاطه مفاهيم الحرية للفرد ,فهل تعطى الحرية له؟ أم يخضع إلى قوانين المجتمع الذي يعيش فيه؟ فإن أراد أن يبدل عقيدته فهل يسمح له بذلك؟

وإن أراد أن يمتلك بطريقة القمار أو الدعارة هل يسمح له؟
وإن أراد أن ينشئ جريدة أو مجلة أو كتب أراء فاسدة ومفاهيم سيئة فهل يسمح له؟
وإن أراد أن يسير بسيارته في الإتجاه المعاكس لم حددته الجماعة هل يسمح له؟
والناس ليسوا ملائكة ,كما أنهم ليسوا ألات متحركة.

[1] أورده الألباني في صحيح الترمذي ، رقمه : 2173 ، حكمه : صحيح

قلنا إن الفرد إن إلتزم بالعقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة اعتبر فرد صالح فكان قرار صلاحه ناشئا من أمور خارجة عن ذاته.

فمتى نقول عن المجتمع أنه صالح ,هل يطلق عليه أنه صالح لوفرة الناس الصالحين فيه؟ أم لأمر أخر خارج عن ذاته؟

إن تنظيم العلاقات وسيرها وتسيرها بقوانين صالحة وجعلها علاقات صالحة وسلطة صالحة تقوم على تنظيم هذه العلاقات وضبطها تجعل المجتمع مجتمعا صالحا .إذن صلاح المجتمع عقيدة صالحة تكونت عليها أعراف عامة صيغت قوانين عامة نظمت علاقات الناس في الداخل تنظيما دقيقا ورعت شؤونهم رعاية جيدة بواسطة سلطة أختيرت من هؤلاء الناس ,وحمت ثغورهم وضربت على يد مسيئهم ,وألزمتهم بدوام العبودية لله.

إذن فإن مقومات المجتمع هي : –

– الأعراف العامة

–القوانين المنبثقة عنها

–السلطة القائمة على تنفيذها

أو بعبارة أخرى ,عرف عام ينبثق عنه نظام ,يقوم على تنفيذه رجل مؤمن .فالملاحظ أن مقومات الفرد يختلف كليا عن مقومات المجتمع ,والسير على إصلاح مقومات الفرد لن يصل مطلقا إلى إصلاح المجتمع.

بقيت مسألة لا بد من إدراكها وعدم الخلط في مفهومها ,إن البحث تناول مقومات الفرد ومقومات المجتمع لبيان الطريق الذي يجب أن تسير عليه الكتلة المؤمنة الصالحة فهل تسلك سبيل إصلاح الفرد؟ أم تسلك سبيل إصلاح المجتمع؟ فإن سلكت سبيل إصلاح الفرد فإنها لن تصل مطلقا إلى صلاح المجتمع إلا إذا انتقلت إليها في اللحظة المناسبة .أما الكتلة المؤمنة الصالحة فإن عملية تكوينها وبنائها ليست هي موضع البحث لأن عملية تكوينها له كيفية خاصة , وهذا يدفعني لتوضيح هذه المسألة .إن الكتلة المؤمنة الصالحة التي نذرت نفسها للعمل في

سبيل الله ,سبيل إعادة الإسلام لواقع الحياة ,سبيل إستئناف الحياة الإسلامية هي مجموعة من الناس أمنت بعقيدة الإسلام ,ووضعت لنفسها ثقافة معينة بتبني شبابها وأعضاءها على هذه الثقافة ,ولا تقبل في صفوفها أو في عضويتها إلا من تكون عقليته ونفسيته على هذه الثقافة المتبناة .حتى الذين يستجيبون للعمل معها لا ينالون شرف العضوية فيها إلا إذا اتصفوا بالصفات الإسلامية كاملا ,وبنوا عقليتهم ونفسيتهم على أساس تلك الثقافة المتبناة.

وتختلف كل فئة عن الأخرى باختلاف الثقافة التي تتبناها كل كتلة ,سواء في خط سيرها ,أو في صفات أعضائها أو في جملة الأفكار والاحكام والأراء التي تبنتها وسارت عليها , والطريق الذي تسلكها للوصول إلى هدفها ,فإن كانت تستهدف إصلاح الفرد سلكت لذلك الطريق الذي يحقق ذلك ,ورسمت الأساليب التي تمكنها من ضم الشباب إلى صفوفها ,وتضع لهم الوسائل والأساليب في عملية إصلاحهم كتحفيظ أجزاء أو سور أو أيات من كتاب الله . وكملازمة الفرد وإصطحابه في غدوه ورواحه ,وإستدراجه إرتياد الصلاة مع الجماعة ,وربما قضاء بعض مصالحه أو إعانته لقضاء مصالحه ,حتى ينخرط بالجماعة ,ويصبح جزءا منها.

أما إن كانت الجماعة تستهدف الأعمال الخيرية ,فيكون همها الأول ضم الناس أصحاب الإمكانية إلى صفوفها ,أو إلتماس المال من ------ لتتمكن من القيام بأعمالها الخيرية .وقد تعقد الندوات وتحث على التبرعات أو غير ذلك من الوسائل و الأساليب التي تمكنها من جمع المال لإنفاقه في السبيل الذي رسمته.

وإن كانت الجماعة تستهدف القيام بالإعمال المادية ومنها العسكرية فإنها تبحث كذلك عن الوسائل والأساليب التي تمكنها من تحقيق بغيتها ,كالمال والسلاح ,وأماكن التدريب وغير ذلك.

أما إن كانت الجماعة تستهدف إصلاح المجتمع ,فإنها تقوم ببيان فساد العلاقات القائمة في المجتمع وفساد الجهة القائمة على تنفيذ هذه العلاقات ,حتى تتزعزع الثقة بين مجموعة الناس والسلطة التنفيذية القائمة على رعاية العلاقات ,وتستمر في الضرب على هذه العلاقات ,حتى تصل إلى القطيعة بين السلطة والمجتمع ,وتستمر حتى تصل إلى ثقة الناس بها ,

وبالتالي القبول والرضى بقيادتها لهم ,وفي الوقت نفسه تعمل لتنمية جسمها ,وبلورة مفاهيمها , وتوضيح هدفها.

إن إختلاف الهدف ,وإختلاف الثقافة ,والتفاوت بالفهم ومثل ذلك هي الأساس في وجود أكثر من فئة وأكثر من حركة أو تكتل أو حزب وليس المطلوب الأن توحيدها في حركة واحدة لإستحالة ذلك كما أسلفنا وكما فصلنا ذلك في كتاب نهج القرأن الكريم في الدعوة ,إلا أن المطلوب هو التعاون والتنسيق بين هذه الحركات والتنظيمات والأحزاب .لعل في تعاونها السرعة في إزالة الغشاوة عن عيون الأمة فيما يتعلق بوجود الإسلام في واقع الحياة ,ومايتعلق بنظام الحكم في الإسلام ,وما يتعلق بالنظام الإقتصادي في الإسلام ,وموقف الإسلام من العلم والتقدم العلمي ,وإستخدام الوسائل العلمية .إن التعاون الواجب وجوده بين الحركات جميعها يؤدي حتما إلى:

- إزالة تلك الستارة التي أسدلها أعداءه على ما فيه من نظم ورعاية لشؤون الناس.
- غرس فكرة وجوب وجود دولة له في نفوس الناس ,وأن هذه المسألة يجب أن يجعلها المسلون قضية مصيرية ,يتوقف وجودهم على وجودها مصداقا لقوله تعالى: { إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلإِنْجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ } التوبة: ١١١، الوضوح الكامل لمفهوم الدولة الإسلامية ,فلا ينخدع المسلمون بالكيانات الزائفة في العالم الإسلامي وتسميتها دول إسلامية.
- إن المسلمين أمة واحدة وحربهم واحدة ,فلا يجوز أن تتعدد الكيانات في الأمة الواحدة.
- أن يتضح للأمة أن الديموقراطية والإشتراكية أنظمة كفر ,وأن أفكار الحرية والقومية والوطنية والإقليمية أفكار كفر وعوامل هدم وتجزئة وتفريق.

- كما أن الأجهزة التي تقوم على تنفيذ تلك النظم والأفكار هي أجهزة كفر ,فالملكية والملكية الدستورية ,والجمهورية ,والجمهورية الدستورية والدكتاتورية فهذه الأجهزة سواء من حيث الإسم أو من حيث الصلاحيات فإنه لا يجوز إستعمالها.

- إن وجود سلطة تشريعية – برلمان – كفر لأنها تعني إتخاذ رب جديد يأمر فيطاع ,وذلك من قوله تعالى: { ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهاً وَاحِداً لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة: ٣١، فقال أحد الصحابة وهو عدي بن حاتم ,وقد كان قد إعتنق النصرانية وعنده معلومات عنها ,قال لرسول الله"ﷺ لكنهم لم يعبدوهم يا رسول الله " ! قال رسول الله ﷺ ﴿ كانوا يشرعون لهم يحلون ويحرمون فيطعوهم وتلك عبادتهم ﴾. [0]

نعم إن تعاونت الأحزاب والجماعات بينها ,وهذا فرض لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ ٱللَّهِ وَلاَ ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلاَ ٱلْهَدْيَ وَلاَ ٱلْقَلآئِدَ وَلآ آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ } المائدة: ٢، فإنها ستحصل على نتائج ثلاث بلورة أفكارهم ,أولا :تحصين الأمة وإبعادها عن أفكار الكفر ثانيا ,وأما ثالثة الاثافي فهي الوصول للغاية المرجوة ,وهي جعل الهدف الذي تسعى إليه هذه الكتل والجماعات هو هدف الأمة وغايتها.

الثورات

حيثما يسفر الفساد عن وجهه ,وتبدو الحقيقة للعيان ,ويرى الناس مقدار الظلم والتعسف ,وفساد الرعاية – رعاية شؤونهم – الداخلية والخارجية .أي يظهر فساد المجتمع بالرغم من كثرة الصالحين فيه من الأفراد ,وحين تظهر تلك المفاسد ,مفاسد الرعاية ,ومفاسد الظلم ,وسوء المعاملات ,تتحرك طبيعيا في نفوس الناس غريزة البقاء لرفع الظلم عنهم ,وإصلاح ما فسد من أحوالهم ,مدركين أن فساد العلاقات ناشئ عن فساد السلطة التنفيذية التي تقوم على رعاية شؤون الناس .فيندفعون من هذا الإحساس بالظلم أو الخيانة إلى العمل من أجل إبعاد ذلك الظلم وإزالة ذلك الفساد مستهدفين إزالة الهيئة الحاكمة ,والسلطة التنفيذية ,التي هي سبب الفساد والظلم حسب تقديرهم ,فتبدأ الإحتجاجات ثم المظاهرات ,ثم التنظيمات المسلحة , وأخيرا ثلة من الجيش تقوم بعمل إنقلاب ,قد يكون إنقلابا أبيض كما يسمونه أو إنقلابا دمويا حين تتشبث السلطة التنفيذية بالبقاء في سدة الحكم ,مما قد يؤدي إلى مجازر رهيبة.

ويتم الإنقلاب ,وتعدم أو تبعد السلطة الحاكمة ,وتأتي فئة أخرى – الإنقلابية – أو من تختاره ,لتحل محل السلطة الأولى ,ويخلد الناس للهدوء والراحة ,عاقدين الأمال على القيادة الجديدة لترفع الظلم عنهم ,وتحسن رعايتهم ,وتجيد سياستهم .وما هي إلا فترة وجيزة حتى تبدأ الأمة بالتذمر ,فقد ذهبت أمالها أدراج الرياح ,وتبخرت أحلامها ووجدت نفسها تعاني ظلما وتعسفا وفسادا أشد وأنكى من العهد البائد ,أو العهد المباد ويبدأ التململ من جديد ,ولكنه تململ مصحوب بالبطش ,قد تنجح فئة مرة ثانية في عملية تغيير السلطة التنفيذية أو الهيئة الحاكمة ومع ذلك تبقى الأمة ترزح تحت نير البطش والإرهاب وكم الأفواه وقطع الأرزاق وقطع الأعناق ,وتبقى فكرة التغيير بالعمل العسكري قائمة في الأذهان ,وإنتقلت العدوى إلى التكتلات السياسية التي رأت أن العمل العسكري هو الطريق الوحيد لتحقيق الأهداف .وبما أن العسكريين في القوات المسلحة لا يؤمن حانبها ,وأنها تربت على أيدي الجلاوزة والطغاة ,وأنها من رجالات العهود السابقة ,وإن الإتصال بها إنما يعني الخضوع لها ,والسير بأوامرها مع أن المطلوب أن تسير القوى المسلمة بأمر هذا التكتل ,ولذلك رأت هذه الكتل التي تؤمن بأن العمل العسكري

هو الطريق الوحيد ,رأت هذه الكتل أن تلحق شبابها في الجيش أو أن تقوم على إيجاد تنظيم عسكري من أبنائها حتى إذا إشتد سوقه تحركت الكتلة لإستلام الحكم بواسطة تنظيمها العسكري فقط .ولما لم ينجح إلحاق الأبناء في الجيش ,لأنه سرعان ما ينكشف أمره فيطرد أو يسجن أو يعدم ,وأما أن تغريه رتبة الضابط وطريقة عيشه ومكانته ,فينقلب لتنظيمه ظهر المجن , ويتخلى حتى عن المبادئ التي أمن بها أثناء وجوده في كتلته السياسية.

إذن فلم يبقى إلا أن يؤسس هذا التكتل السياسي تنظيما عسكريا من أبنائه يقوم في الموعد المحدد بتوته بالإحاطة بالحكم القائم وإستلام دفة القيادة والمجيء إلى بسلطة تنفيذية من قادة الكتلة السياسية نفسها .هذا ما يهيمن على الكثير من الكتل السياسية التي تقول أنها تريد الوصول إلى الحكم ,وتنفيذ فكرتها ورعاية شؤون الأمة بما تتبنى من أحكام .ولا يمكن أن يسمح ولا بأي حال من الاحوال أن توجد في هذا الكيان السياسي قوة يمكن ان تهدد أمنه وإستقراره ,أو الخروج على نظامه وشكل رعايته للناس ,ولهذا نجد الأنظمة القائمة في العالم تراقب بدقة هذه الأمور الحساسة السلاح والتسلح ,حتى ما يسمى بالسلاح الفردي أو بنادق الصيد فقد وضع لها قوانين تنظم إستعمالها وإقتناءها.

ومن هنا كانت قوة الفئة الحاكمة معتمدة على أمرين ,الأمر الأول ثقة الناس بهذه الفئة الحاكمة والأمر الثاني هو الجيش ,فمن أراد أن يغير فئة حاكمة ويزيلها عن السلطة عليه أولا هدم الثقة القائمة بين الشعب والسلطة ثم إيجاد قوة مادية أقوى من قوة هذه السلطة ,أي أقوى من قوة الجيش .ولما كان الجيش هو القوة الفعلية الموجودة ,ولا يسمح بوجود قوة قادرة على الوقوف بوجه ,لذا كان على مريدي التغيير إستحضار قوى خارجية أقوى من قوة الجيش – وهذه خيانة – فالإستعانة بالأجنبي خيانة أيا كان هذا الأجنبي ,وقد لمسنا بأيدينا ,ورأت عيوننا ,وقرأنا عن تاريخ الشعوب والتدخلات الأجنبية ماذا كان مصيرها ,ومعظمها مازال قائما للأن.

فقد إستعان العرب بالغرب ,بريطانيا وفرنسا لإنتزاع السلطة من الدولة العثمانية فماذا كانت النتيجة ,تمزيق للشعب العربي ,وتجزئته إلى كيانات كرتونية هزيلة .وحرب الخليج وإستعانة الكويت والسعودية بأمريكا لا تحتاج إلى تعليق.

إذن وما دام الأمر كذلك ,إن الإستعانة بالأجنبي خيانة ,ونتائجه إجرام ,والمسألة تحتاج إلى قوة أقوى من النظام القائم وأقوى من الجيش فيه ,بل أقوى من الكيان كله ,والمطلوب هو التغيير ,فكيف يمكن الوصول إلى التغيير؟ إنما يكون بواسطة الكيان الفكري.

قلنا إن هذا الكيان وقوته يقوم على ثقة الناس بالفئة الحاكمة ووضع إمكانياتها تحت تصرف هذه الفئة الحاكمة .وما دامت هذه هي السبب بوجود القوة ,فلا بد من إزالة السبب لإزالة المسبب حيث أن القاعدة تقول في تعريف السبب أنه ﴿ ما يلزم من وجوده وجود ومن عدمه العدم ﴾[1]فكيف لنا أن نقتلع هذه الثقة من نفوس الناس؟

الكيان الفكري

إن الناس مرتبطون بالفئة الحاكمة بمقدار رعايتها لعلاقاتهم وقيامها على مصالحهم فإذا خرجت هذه الفئة على مفاهيم الناس ,أو قصرت في الرعاية ,أو إستأثرت بمنعه أو اثرت فئة على أخرى ,أو ظلمت الناس ,فإن الثقة تبدأ بالأفول حتى تنتهي ويحل عليها الحقد والكراهية والتمني بزوال هذه الفئة.

هذه حقيقة واقعة ,والطريق إليها تقتضي بيان فساد الرعاية مما خفي أمره على الناس , وبيان مخالفته لعقيدة الناس ومناقضته لما يؤمنون به من أعراف وعادات وتقاليد ,والإستمرار على ذلك بكل جرأة وثبات ,وبلا مداهنة أو نفاق .مثلا إن الإسلام مناقض للديموقراطية ,ولكن التثقيف والتوجيه السابق جعل هذه الفكرة محببة مستساغة ,فبيان انها مناقضة للإسلام ليس أمرا سهلا ,لذا يقتضي ذلك بيان جزئياتها حتى تلمس لمس اليد ,فالقول ان التشريع في الإسلام مصدره الوحي – أي من عند الله – بينما الديموقراطية تقول أن التشريع تضعه السلطة التشريعية أي مجلس النواب ,أي أن الديموقراطية جعلت للناس ربا جديدا هو مجلس النواب.

هو عبارة عن مجموعة من الناس أمنت بعقيدة معينة إيمانا فكريا ,واشتملت هذه العقيدة على فروع تعلقت بجميع جوانب الحياة – حياة الناس – فهي لكونها عقيدة عقلية وجرى الإيمان بها عقليا ,وتناولت بفروعها معالجة جميع نواحي الحياة ,فهي بذلك كيان فكري متسع ,يؤثر بغيره ولا يتأثر من غيره ,يؤثر بغيره لأنه يتناول مشاعر الأخرين وأحاسيسهم ويخاطب عقولهم .إن هذا الكيان الفكري المكون من كمية هائلة من المعالجات ,وهو كتلة من الأفكار تجسدت في أشخاص – قل عددهم أو كثر – فيه قابلية التأثير بغيره ,وأخذ ثقته وتولي قيادته ,فلا عبرة لعدد الأشخاص الذين يحملون هذه الأفكار ,إلا أنه كلما كان عددها أكبر كان إشعاعها أفعل.

إذن الكيان الفكري هو عبارة مجموعة من الأفكار والاحكام والأراء تجسدت بمجموعة من الناس .إن هذا الكيان الفكري فيه قابلية التأثير في الشعب وأخذ ثقته ,فيه قابلية التأثير السلطة في الفئة الحاكمة ,وممن الممكن أخذ قيادتها – لو كانت مخلصة لأمتها – فيه قابلية

التأثير في القوة التي تعتمد عليها السلطة – الفئة الحاكمة – أي التأثير بالجيش وأخذ ثقته وإنتزاع قيادته ,فالجيش هم أبناء هذه الأمة ,لذا فإن على هذا الكيان الفكري السير نحو هدفه بجرأة وثبات مستهدفا كسب ثقة الناس وإيجاد القطيعة بين السلطة والشعب.

قبل أن أناقش هذه الفكرة وما تتطلبه من وعي وإدراك ,وددت أن أضع بين يدي القارئ , تجربتين اثنتين يستطيع أن يلحظ منهما الرد على هذه الفكرة ولعله يعمل ذهنه فيهما ,وينقل تصوره ذلك لرجال تلك الكتل المؤمنة بوجوب تأسيس تنظيم مسلح وتقويته بحيث يصبح الأداة القادرة على أخذ الحكم وإستلام السلطة.

- **التجربة الاولى :في ظروف معينة وجدت منظمة التحرير الفلسطينية كما وجد من قبلها جيش التحرير الفلسطيني في أوائل الستينيات ,والذي ذاب في إطار منظمة التحرير الفلسطينية التي ما لبثت أن أشعرت عن نفسها وعن عملها ,وباشرت القيام بالعمليات الفدائية ضد إسرائيل ,ووقفت جميع الدول العربية إلى جانبها ,حتى إدعى الملك حسين أنه هو الفدائي الأول ,كما ساندتها جميع الدول القائمة في العالم الإسلامي ,وإنتقل التأييد إلى المعسكر الإشتراكي الذي فتح أبوابه ,ووضع إمكانياته بين يدي منظمة التحرير وقيادتها . وحين نقول منظمة التحرير الفلسطينية إنما نعني كافة المنظمات والفصائل المسلحة بجميع أسمائها ومسمياتها .وانطلقت المنظمة بأعمالها السياسية والعسكرية حتى أرغمت العالم على إحترامها ,وترحيب بها كعضو مراقب في منظمة الأمم المتحدة ,وكان لدى المنظمة من الإمكانيات المادية والعسكرية ما يفوق ما عند بعض جيوش بلدان المنطقة ,وقد فتحت له معسكرات التدريب ,ومناطق الإنطلاق ,من الأردن ومن سورية ومن جنوب لبنان ,حتى قالوا إن منظمة التحرير هي الناطق الوحيد والممثل الوحيد للشعب الفلسطيني .وإقتضى الوضع السياسي الدولي أو الإقليمي أو المحلي ,تقليص هذا الوجود من بعض المناطق فمنع إنطلاقه العمليات من مصر ,وإقتضى الأمر خروج المنظمة المسلحة من الأردن فإدى ذلك إلى الإصطدام العسكري بين الجيش الأردني – الذي هو أضعف جيوش المنطقة بع الجيش اللبناني – ودارت المعارك طاحنة في ضواحي إربد ,وفي عمان نفسها مدة أربعة عشر يوما كانت حصيلتها الدمار والخراب والاف القتلى والجرحى ,والهروب إلى سورية ولبنان**

وفلسطين المحتلة ,والأنكى من ذلك العداوة الشديدة بين أبناء الشعب الواحد في الأردن وإنشطاره إلى شعب أردني وأخر فلسطيني .وطردت المنظمة من الأردن ,مع أن الإمكانيات العسكرية التي توفرت لها لا يمكن أن تتوفر لأي تكتل أو تنظيم ,وفي أي بلد من بلدان العالم .طردت من الاردن ولم تعتبر بما حصل ,فانتقلت إلى لبنان ,أو هكذا أريد لها أن تنتقل إلى لبنان ,وكان لديها من الأمكانيات ما تستطيع به أن تغير ,أو أن تؤثر في سياسة المنطقة .من هنا قد لا يكون المثال منطبقا على واقعه ,وأعني أن القوة العسكرية للمنظمة كانت خاضعة للقرار السياسي .ولذلك لا وجه للقول بعدم فاعلية القوة العسكرية في التغيير السياسي للكتلة السياسية أو الحزب .فمنظمة التحرير كانت قوتها أسيرة القرار السياسي , وإلا لتمكنت بقوتها المادية أخذ الأردن في سنوات 68 و 69 وتغيير وجه السياسة في غيره من البلدان لما كان لها من دعوة ودعاية.

- التجربة الثانية :وأما المثال الثاني وأظنه مثال حي عايشه الناس كذلك ,فهو مثال لحركة فكرية تستهدف الحكم وتغيير النظام القائم بل وتغيير المجتمع تغييرا جذريا شاملا ,فعملت منذ بداية تكوينها السياسي التنظيمي على الأخذ بالاسباب التي توصلها لمبتغاها .فكرة سياسية واضحة ,وأشخاص مؤمنون بهذه الفكرة ,ودعوة ودعاية وجمع أموال وإستعداد وتنظيم و معسكرات ,ثم سلاح وتسليح وتدريب .بدأت تلك الكتلة سنة 1937 و سارت في الطريق الذي رسمته للوصول إلى هدفها .كانت تلك الكتلة هي حزب الكتائب اللبناني بقيادة بيير الجميل .وشاءت الظروف أن تفتح أمامها بابا واسعا تدخل به حلبة الصراع العلني ,والإستعداد العسكري ,وتلقي المساعدات المادية والعسكرية ,وذلك حين إشتد الصراع بين أمريكا وبريطانيا على الساحة اللبنانية حاملا وجه الصراع الديني ,بل الحرب بين المسلمين والنصارى ,وتسلم حزب الكتائب قيادة النصارى واستولى على البندقية النصرانية وهيمن على جميع التنظيمات النصرانية المسلحة تحت إسم القوات اللبنانية ,في هذه الحقبة من الزمن وبالتحديد ما بين سنة 1974 حتى سنة 1982 كانت قواته العسكرية لا ينقصها شيء ,بل وكثر من ذلك فقد إستعان بإسرائيل لطرد منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان , وإقتضت السياسة الدولية ذلك ,وتم له ما أراد بإجتياح إسرائيل لبنان ,واستقبلها الحزب

إستقبال الفاتحين ووقف معها في خندق واحد وما أن انسحبت إسرائيل حتى كان بشير الجميل رئيسا للدولة ,ولكن ليس بسبب قوته العسكرية بل الظروف والصراع الدولي الذي جعل العرب يجتمعون في جدة ويستدعون بشير الجميل لحضور المؤتمر ويعود ليحتل رئاسة الجمهورية ,واغتيل بشير الجميل وتولى الحكم من بعده شقيقه أمين الجميل وبدأ الصراع يأخذ وجها أخر بعد أن طردت منظمة التحرير الفلسطينية ,حتى أسفر عن صراع عنيف ثم حرب طاحنة بين الجيش اللبناني بقيادة الجنرال عون ,وبين القوات اللبنانية بقيادة سمير جعجع ,عفوا لم يكن الصراع بين الجيش اللبناني جميعه وبين القوات ,بل بين شرذمة منه لأن القسم الأكبر منه كان مشتت الولاء بين سورية ومنظمة أمل وجيش فخر الدين ومستقلين وغير ذلك .إنتهت الحرب بين الجيش اللبناني – مجازا – والقوات اللبنانية بهزيمة منكرة للقوات اللبنانية بقيادة حزب الكتائب ,وانشطر الحزب على نفسه .وهنا لا بد لي أن أقول إن المعاذير التي يمكن أن تساق لمنظمة التحرير لا يجوز أن تساق لحزب الكتائب .فهو حزب سياسي له فكرته وقيادته المخلصة لفكرته وله أهدافه ,وضعت بين يديه إمكانيات هائلة تمكنه من شراء الجيش اللبناني بكامله إلا أن قيادته أخطأت خطأ فظيعا حين أهملت شأن الجيش ,اعتمدت قوتها الذاتية ,مغرورة بما لديها من قوة ,وما عندها من إمكانيات.

و هنا لا بد من وقفة قصيرة.

إن الحكم في أي بلد ما هو تخلي الشعب عن سلطته ليضعها بيد شخص أو فئة تقوم على رعاية العلاقات العامة التي تنظم حياة الناس وتجعل منهم مجتمعا وكيانا سياسيا.

فإن كانت هذه الرعاية للعلاقات العامة منبثقة عن عقيدة الشعب أو من عاداته وتقاليده . فإن بقي هذا الشخص أو مجموعة الأشخاص محافظة على هذه الرعاية ,ومراعية عقيدة الناس ومخلصة في تنفيذها ,إلتف الشعب حولها وحماها بالغالي والنفيس .أما إن أحس أنها بدأت تخرج عما اتفق عليه ,وبدأت تستأثر بإمتيازات خاصة ,ومنافع أنانية ,أو تؤثر فئة على فئة فإنها تبدأ بالتحسس للقيام بعملية التغيير.

إن الشخص أو الفئة التي وضعت على رقاب الناس إعتمدت في وجودها على قوة من هؤلاء الناس تمكنها من حماية هذا الكيان وتوفير الأمن له في الداخل والخارج وتضرب بقوة كل من يحاول العبث بأمن الناس ,أو الخروج على القانون ,أو الخروج على السلطة .ولهذا كانت هذه القوة – الجيش – هو القوة الوحيدة في البلد.

مستدلا بقوله تعالى: { ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهاً وَاحِداً لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة: ٣١ فقد دخل عدي بن حاتم الطائي على رسول الله ﷺ وكان رسول الله يتلو قوله تعالى: { ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهاً وَاحِداً لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }التوبة: ٣١ فقال عدي بن حاتم لكنهم لم يعبدوهم ,فقال رسول الله ﷺ ﴿ كانوا يشرعون لهم يحلون ويحرمون فيطعوهم وتلك عبادتهم ﴾ فإنك حين تخاطب الشعب بمثل هذا الأمر , خصوصا وإن عقيدته ما زالت سليمة نقية ,فإنك تثيره وتسبب شرخا بينه وبين أساس ––– رعايته القائمة .كذلك حين يتبين له أن هذه الفئة الحاكمة القائمة على رعاية شؤونه بنظام معين ,إنما إستباحت به أعز ما يملك فقد وضعت تشريعات إستباحت عرضه وانتقصت من كرامته ,فقد أباحت الزنا إن كان عن رضى وإختيار ,ويمنع الأب منعا باتا من التدخل في تصرفات ابنته الزانية ,وقل هذه الأمور من فساد الرعاية كثير ,ومن الظلم أكثر ,ومن المحسوبية والتمييز والإمتيازات أضعاف أضعاف .فإن إستمرارية الضرب على فساد هذه العلاقات وكيفية رعايتها يؤدي حتما إلى قطع الثقة ما بين الحاكم والمحكوم ,ما بين هذه الفئة المتسلطة وبين الشعب الذي مكنها من رقبته ,وبالتالي فسيبدأ بالتحسس لعملية التغيير ,أوعلى الأقل القبول بعملية التغيير .وبما أن الجيش هم أبناء هذا الشعب فإن إحساس الرغبة بالتغيير سينتقل طبيعيا إلى هذا الجيش ,وإلى أصحاب الفعالية فيه ,إلا أنهم لم يحددوا بعد هدفا وليس لديهم تصور لما يريدون إلا التغيير والتغيير فحسب ,ولهذا فقد قامت عدة محاولات للتغيير ,فغيرت الأشخاص فعلا إلا أنها لم تغير النظام ,فبقيت تعاني الأمرين مما وصلت إليه ,وتبكي على ما مضى.

أما ذلك الكيان الفكري فإن عليه البقاء في وسط الأمة يشرح لها أفكاره ,ويبين لها معالجاته ,ويحذرها من الإنتقال من الإحساس للعمل ,ويحاول أخذ ثقتها حتى تنتقل هذه الثقة

من الشعب إلى أبنائه في القوات المسلحة ,مما يسهل لهذا الكيان الفكري العثور على مراكز القوة التي تثق به ثم تمكنه من إستلام الحكم.

نعم لا بد لهذا الكيان الفكري المتمثل بمجموعة من الناس من أن يواصل الضرب على العلاقات الفاسدة التي تنظمها السلطة التنفيذية سواء في العلاقات الداخلية ,كإهمال المرافق العامة ,أو فرض الضرائب على المواد الإستهلاكية ,أو ضرائب الجمارك التي ترهق كاهل المستهلك وليس التاجر ومخالفتها للنصوص التي أمن الشعب بها مثل قول رسول اللهﷺ ﴿ لا يدخل الجنة صاحب مكس ﴾ [1]أو التنازل عن البلاد وبما فيها من مقدسات للكفار .نعم لا بد من الإستمرار بتبني هذه المصالح والتصدي لتلك المفاسد دون أن تأخذه في الله لومة لائم , ولكي يصل هذا الكيان لما يريد من تغيير لا بد أن تكون أهدافه واضحة بكلياتها بل وجزئياتها . فالوعي على الهدف لا يقل أهمية عن الوعي على الطريق والإهتمام بالوعي والفهم لا يقل أهمية عن الجرأة والإستعداد للتضحية .فأخطر ما يجابه الكيان الفكري من أمور هو عدم أخذ الأفكار بالجدية التي ترتقي لمستوى الأفكار العملية ,كالتنظير والخيال والبحث في المثاليات إلى غير ذلك من البحوث الفلسفية أو الأزابيتات وقانا الله شرها.

[1] أورده أبو داود في سنن أبي داود ، رقمه : 2937 ، حكمه : سكت عنه (وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح)

نظرية العصيان المدني

العصيان المدني هو إمتناع كل موظف أو عامل في القطاع العام أو القطاع الخاص عن مباشرة عمله ,فهو بتعبير أخر إضراب عام شامل لكل نواحي الحياة ,ويستعمل عادة بشكل جزئي للضغط على الدولة أو السلطة لتحقيق هدف من الأهداف ,أما إستعماله بشكله العام فهو محاولة لإجبار رئيس الدولة على التنحي والإستقالة ,وإستبداله بغيره .هذا من ناحية نظرية ,أما من حيث الناحية العملية فإن المسألة أبعد من ذلك بكثير ,فهي تتطلب ثقة مطلقة من الأمة بإطاعتها وتنفيذها .أما إن لم تكن الثقة كذلك فالدعوة إلى العصيان المدني قد تؤدي إلى نتائج عكسية تماما .وقد مر بنا في هذا العصر تجربتان ,بدا أولهما النجاح ,وأما الثانية فقد فشلت بالإسلوب الذي سلكته.

إما أسباب نجاح الأولى فيعود إلى أمرين.

- الأمر الأول : إرتباط الجماهير إرتباطا عقيديا بعلمائهم ومجتهديهم ,حيث أن الحكم الشرعي بحق الجعافرة يقضي بعدم تقليد الميت ,فلا بد للمسلم من تقليد مجتهد حي يثق به ثقة مطلقة .فقد أولاه الثقة في دينه فعليه كذلك أن يوليه الثقة في أمور دنياه ,ومن هنا صار من السهل على العاملين في حقل التغيير أخذ ثقة الأمة بوجود المجتهد بينهم أو أن يكون المجتهد الجامع للشرائط المدرك لشؤون العصر هو قائد العاملين على التغيير كما حدث مع الخميني تحديدا .هذا هو السبب الأول الذي جعل الخميني ينجح بالتغيير سلما ودون إراقة دماء.

- الأمر الثاني :فإن الصراع العالمي على المنطقة ,والتنافس بين دول الإستعمار أملى الجيش الإيراني على عدم التدخل ,وأجبر على البقاء في ثكناته مما مكن للقيادة الجديدة أن تقوم بمهامها ,وتجبر الشاه على الرحيل.

إن هذين الأمرين لم يتوفرا في العملية الثانية التي فشلت في الجزائر وأعني جبهة الإنقاذ فلا أناس مرتبطين بعلمائهم ومجتهديهم إرتباط عقيدة وتقليد شرعي ,ولا القائمين على القيادة هم

من المجتهدين أو المراجع الشرعية ,ومع ذلك فقد أوجدت قيادة جبهة الإنقاذ رأيا عاما وإنقاد لها الناس إنقيادا شاملا ,إستعاضت به عن التقليد الشرعي ,وكان لتلك الحالة ظروفا خاصة مكنت الجبهة من تحقيق ذلك النجاح .ومع ذلك لم تنجح في التغيير بالرغم من حصولها على 80%في الإنتخابات.

أما الأمر الثاني فكان على العكس مما حصل في إيران ,ففي إيران أجبرت أمريكا الجيش على البقاء في ثكنته ولم تمكنه من التحرك لحماية الشاه أو الحكم .بينما في الجزائر فقد تدخل الجيش لمنع جبهة الإنقاذ من ممارسة حقها الدستوري والقانوني والشرعي .ولم يكتفي بمنعها بل إعتقل قادتها ,وإعتبر أتباعها خارجين على القانون ,فاعتقل المئات بل الألاف منهم , وما زال يطاردهم.

من هنا نرى أنه لا يمكن القيام بعملية التغيير مهما بلغت الثقة بين الأمة وقيادة التغيير , فلا بد من مراكز القوة لتتولى هي عملية إبعاد الحاكم المراد تغييره .وتمكن قادة التغيير من تنصيب حاكم جديد ,وإجراء التغيير الإنقلابي الشامل ,وبدون التمكن من أخذ مراكز القوة ,فلا يمكن القيام بعملية التغيير أبدا ,فلا عصيان مدني ,ولا إنتخابات ديموقراطية ,ولا إغتيال سياسي.

ممن الممكن – من ناحية نظرية – إستعمال العصيان المدني طريقة للوصول إلى الحكم وطرد الحاكم أو إستبداله ,دون الحاجة لإستعمال القوة ,وهذا الأمر يتطلب أمورا كثيرة لا بد من إدراكها منها ما يجب أن يكون عليها هذا التكتل أو ذلك الحزب من وعي وإدراك وجرأة وإقدام . وقد بينا في فصل سابق صفة أي تنظيم يود تغيير الواقع الفاسد إلى واقع أفضل فلا ضرورة للخوض فيه مرة أخرى بالرغم من أهميته حيث أن الأمم لا تعطي قيادتها لجاهل ولا جبان . فكيف إن كانت الأمة – أمتنا الإسلامية – قد ذاقت الأمرين من قادة خدعوها مرات ومرات حتى باتت في شك دائم من أي قائد ,وإرتياب مستمر من أي تحرك .مع أنها أمة كريمة معطاءة , تجود بفلذات أكبادها ,وتبذل الغالي والنفيس عندما تثق بقيادتها...وفي سبيل الجهاد على وجه الخصوص.

إذن ,وما دام الأمر يتعلق بالحصول على ثقة الأمة فإن الأمر لا يقتضي معرفة الأعمال التي من شأنها تحقيق ذلك ,مثل إرتباط الأمر بمصالحها ,وكشف خيانات قادتها وضرب قيمها وتقاليدها من قبل حكامها.

إن الأساس الذي يقوم عليه الكيان السياسي هو الدستور والقانون المنبثق عنه بواسطة المجلس التشريعي .إن الجريمة الأولى بحق هذه الأمة هو وضع دستور وضعي وقوانين إنبثقت عنه بواسطة المجالس التشريعية ومحاولة جعل الأمة تقدس ذلك فتفرغ للإحتكام إليها كلما ظهر أي خلاف بين أبنائها وفئاتها ,وتنظم حياتها بموجب الدستور والقانون ولم تدرك الأمة أن هذا العمل هو الإشراك بالله .إن هذا العمل هو إتخاذ ربا غير الله ,قال الله تعالى{ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهاً وَاحِداً لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة: ٣١ ، ولم تدرك الأمة أن الإنسان إما أن يكون عبدا لله أو أن يكون عبدا للقانون والدستور المنبثق عنه .إن الأمة الإسلامية تؤمن بأن الله سبحانه وتعالى هو الجهة الوحيدة التي تدين لها بالعبودية ,ولا تحتكم إلا لها مصداقا لقوله تعالى: { فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِيۤ أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً } النساء: ٦٥ ، وأن أي إحتكام لغير الله هو إحتكام لحكم الجاهلية: { أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } المائدة: ٥٠، إلا أن قادتها والقائمين على أمرها قد ضللوها عن عقيدتها ,وأوهموها أن هذا لا يخالف إيمانها ,ولا يمس عقيدتها فاستكانت.

فلا بد من إستمرارية بيان هذه المسألة ووجوب العمل لنبذ هذا الدستور وما ينبثق عنه من قوانين ,ورفض ما يسمى بالسلطة التشريعية ,فإن الشرع الإسلامي وحي من عند الله ,جاء به محمد رسول الله ,ﷺ فبيان شكل الدولة وقواعدها وأركانها وأجهزتها وصلاحية كل جهاز ,و وحدة الأمة ,والقواعد العامة لتنظيمها – أي الدستور – قد جاء به الرسول ,ﷺ ومعالجة كل عمل ,وتنظيم تصرفات الأفراد على إختلاف إعمالهم ووظائفهم قد بينته الأحكام الشرعية المنبثقة من الكتاب والسنة ,والفقهاء أو المجتهدون هم أهل القدرة على فهم ما جاءت به الشريعة من قوانين – إن جاز التعبير – فهل ترضى الأمة أن يكون لها إلها غير الله .فعبادة الله طاعته فيما أمر ,وعبادة المشرع طاعته فيما أمر .

العصيان المدني ومايتطلبه من أعمال

من الممكن من ناحية نظرية إستعمال العصيان المدني طريقة للوصول إلى الحكم ,وطرد الحاكم وتغييره دون اللجوء إلى القوة ,إلا أن هذه النظرية تحتاج إلى ما يلي:

- حزب سياسي أو تنظيم سياسي ينال ثقة جميع الناس ,فينقادون له ,ويسيرون وراءه.
- أمة أو شعب ما زال يتمتع بحيويته ,ولم تخر عزيمته ,ولم تخدعه قياداته المتعاقبة فهو في حالة شك وإرتياب دائمة.

وسابدأ من النقطة الثانية قبل الأولى ,فلا بد من معرفة طبيعة هذه الأرض التي نريد زراعتها ,وهذا يقتضي إلقاء نظرة فاحصة على هذه الأمة .والحالة التي وصلت إليها ,نعم إن أمتنا هي خير أمة أخرجت للناس ,أمة معطاءة كريمة حين تثق بقياداتها ,وتؤمن بزعاماتها ,ولكنها مع تعاقب أولئك القادة عليها ,والتنقل بها من خيانة لأخرى ,ومن فشل إلى فشل ,فقد فت ذلك في عضدها ,وزعزع ثقتها ,ويكاد أن يوصلها إلى حالة اليأس فإبتداء مما يسمى بالثورة العربية الكبرى وإنتهاء بمواقف قادتها من إسرائيل ,مرورا بجميع الثورات المسلحة الدامية ,التي قدمت فيها الأمة خيرة بنيها قرابين على مذبح النهضة ,وهدرت فيها من الأموال والطاقات ما يكفي لتغيير معالم التاريخ في العالم ,إلا أنها ما زالت تعاني من الظلم والجور ما يكفي لتحطيم أعتى أمة في الوجود ,ولولا ما حياها الله به من الخصائص ,وبقية من إيمان لزالت واندثرت منذ أمد بعيد ,ولذلك صارت عملية أخذ ثقتها عملية شاقة عسيرة ,تتطلب جهودا غير عادية ,ومواقف جريئة ,ورؤيا واضحة ,ومفاهيم صادقة حتى تستطيع تحقيق جزء يسير من هذه الثقة .وأما الثقة المطلقة التي تستطيع بها أن تجعل الأمة تسلم لك القيادة ,وتستجيب للقيام بعمل أو الإمتناع عن القيام بعمل فهذا يتطلب أكثر من الأول بكثير ,وذلك أن تجعل الهدف الذي تريد قيادتها إليه سهل المنال ,وإنك قادر على تحقيقه ,هذا من حيث معرفة ما عليه الأمة ,وما فيها من طاقة حيوية ,وممن إستعداد للعمل.

أما من حيث الحزب أو الكتلة العاملة على التغيير ,فلا بد أن تكون على مستوى عالي من الوعي والجرأة .فإن الأمم لا تعطي قيادتها لجاهل أو جبان .أما الوعي فعليها أن تعرف كيف تخاطب الأمة ,والأوتار التي تضرب عليها ,والميادين التي تلعب بها ,فالعلاقات بينها وبين النظام الفاسد ,وسوء رعاية النظام لهذه العلاقات ,وسوء النظام الذي فرض عليها لتسيير مصالحها هو الركن الأساسي الذي يجب أن تعي عليه الكتلة وعيا كاملا كما لا بد أن تكون على علم ومعرفة بالبديل ,فحين نبين أن الديموقراطية نظام فاسد لا بد من بيان البديل ولا يكفي أن يقال أن الديموقراطية نظام وضعي ,أي من وضع البشر .والإسلام نظام روحي من عند الله ,بل لا بد من التعرض لكثير من أسس وجزئياته ,كبيان أن الحرية كأساس من اسس الديموقراطية فكرة باطلة زائفة لا وجود لها ,وبيان أن الإنسان اما ان يكون عبدا لله أو أن يكون للنظام فلا وجود للحرية في واقع الحياة .وحين نخاطب الأمة بفساد الرعاية الإقتصادية وفساد النظام الذي نظم العلاقات الإقتصادية بين الناس لا بد من إظهار هذه المفاسد وما جرت على الأمة من الويلات .وما إستأثرت به السلطة من إمتيازات ,وما اكلت من أموال الناس .هذا مع بيان البدائل التي يريد هذا التنظيم أو الحزب نقل الناس إليه .ففرض الضرائب مثلا على المواد الإستهلاكية لحفظ إقتصاد البلد أو حماية صناعاتها ,كفرض ضريبة الجمارك ,فإن هذا خدمة لصاحب المصنع أو التاجر , ويقع عبؤه على المستهلك المسكين ,وإستيلاء الدولة على المرافق العامة ,والثروات الطبيعية انما هي سرقة لأموال الناس لأنها من الملكية العامة التي هي ملك لجميع الناس ,وليست ملكا للدولة .وهذا يقتضي توضيح الملكية في الإسلام ,وتحديدا ملكية الأمة أي المكتبة العامة , وتفهيم الناس أن الثروات الطبيعية في البلد كالنفط وما في باطن الأرض من معادن ,والماء والكهرباء وشواطئ البحار والفضاء الخارجي هذه كلها من الملكية العامة التي لا يجوز للدولة أن تمتلكها ولا أن تعطي إحتيازها لأحد أو شركة أو غيرها ,بل الدولة مسؤولة عن رعاية هذه الملكية وتنميتها وتوزيع ريعها على أصحابها أي على الناس كافة .أما إن كانت الدولة محتاجة إلى المال , فإن بإمكانها فرض الضريبة على الأغنياء في الأمة ,وليست على المواد الإستهلاكية ,ولا على النفوس ,فالضرائب كفرض على الأموال حيثما وجد .وهكذا في جميع مفاسد النظام الذي ينظم العلاقات بين الناس ,فبيان هذه المفاسد ,وبيان سوء الرعاية ,هو العامل الأساسي في قطع الثقة

بين الناس والسلطة ,لأنه لا يمكن أخذ الثقة الناس ما داموا يدينون بالولاء للسلطة القائمة .فإن نجح التنظيم بقطع الثقة ,وزعزعة الولاء بين الحاكم والمحكوم ,فإن الباب يصبح مفتوحا لأخذ ثقة الناس وولائهم.

ولنلق نظرة على سيرة الأنبياء في أممهم ,فإنه بالإضافة إلى طلب الإيمان من أممهم فإن إظهار العلاقات الفاسدة التي يمارسها النظام كان العنصر الثاني في الدعوة.

فهذا شعيب عليه السلام في مدين يخاطب قومه كما أخبرنا بذلك الله سبحانه وتعالى في القرأن الكريم ,قال تعالى { وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي ٱلأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ } { وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَٱذْكُرُوۤاْ إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَٱنْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ } (الأعراف:85 –٨٦)

وكذلك الأمر مع صالح عليه السلام إذ جاءهم ببينة وحذرهم من مخالفة ما فرض عليهم بهذه الناقة إذ جعل لها شرب ولهم شرب بيوم معلوم فقال: { وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيۤ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوۤءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } الأعراف: ٧٣

كما كانت دعوة لوط عليه السلام إذ حذر قومه من المفاسد التي سادت علاقاتهم فقال لهم﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ (81) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾.()

إن هذه المسألة يجب إستمرار العمل لها حتى تصبح من البديهيات عند الأمة حتى تقبل تغيير ما هي فيه ,بل تقبل التحرك لتغيير ما هي فيه.

وكان مما جاء في هذا الدستور وتلك القوانين ما جعل الأمة ترزح تحت نير من الظلم والإضطهاد ,وضرب للقيم والعادات والتقاليد التي نبت عليها عزتها وكرامتها .فمن الناحية الإقتصادية على سبيل المثال ,لا الحصر ,الملكية العامة.

الملكية العامة هي ما حدده الشرع الإسلامي من أعيان ملكية لجميع الناس الذين يحملون تابعية الكيان السياسي الذي يعيشون فيه .فهي ملكية لجميع الناس وليست ملكية للدولة ,وإنما تقوم الدولة على رعاية هذه الملكية وتنميتها وتوزيع ريعها على أصحابها ,فلا يجوز للدولة أن تتصرف بهذه الأموال إلا بموجب ما حدده الشرع وتتلخص هذه الملكية في أمور ثلاث:

- **ما تتفرق الجماعة في طلبه ,لقوله ﷺ ﴿ الناس شركاء في ثلاث : الماء و الكلأ و النار ﴾[1] ,فالبحار وشواطئها ,والأنهار وضفافها ومصابها والأحراش والبترول , والكهرباء والمراعي كل هذه ملك للجماعة وليس للدولة إلا القيام على حمايتها ورعايتها وتنميتها ,وتوزيع أرباحها على الناس جميعا.**
- **ما طبيعته تمنع إمتلاك الفرد له ,كالفضاء الخارجي وما نجني منه من رسوم الطيران وشواطئ البحر فلا يجوز لفرد أو جماعة أو شركة أن تنشئ أي مؤسسة أو مسح أو مولد كهرباء بشكل دائم على أي جزء من ذلك ,وعلى الدولة إستغلال هذه الأمور بما فيه مصلحة جميع الناس وتوزيع ريعه على جميع الناس.**
- **ما في باطن الأرض من معادن وخيرات ,فحكمه كذلك ,وعلى الدولة أن تقوم بحمايته ورعايته وتوزيع ريعه على الناس كل الناس.**

ولا يقال إن الدولة تحتاج إلى أموال وهي القائمة على شؤون الناس ولذلك فهي تأخذ ريع هذه الملكية لتقوم على رعاية شؤون الناس .لا يقال ذلك لسببين ,السبب الأول أن للدولة أموالا أخرى وملكية خاصة بها ليس هنا معرض بيانها ,أما هذه الأموال فهي حق لجميع الناس فإن إحتاجت لأموال للقيام بما يجب عليها ولم يوجد عندها أموال لذلك ,فلها أن تفرض من

[1] أورده ابن تيمية في مجموع الفتاوى ، رقمه :219 / 29 ، حكمه : معروف رواه أهل السنن

الضرائب على الأغنياء بما يفي لحاجتها .وبهذا يكون الفقير قد أخذ حقه ,وأخذت الدولة حاجتها من الأغنياء .وبهذا تكون الدول القائمة في عالمنا الإسلامي تأكل ظلما أموال الناس بحجة أنها أموال الدولة أو هي القائمة على رعاية الناس ,مع أن الحقيقة هي خلاف ذلك . فالدول القائمة لا تنظر لهذه الملكية إعتبارها ملكية عامة ,بل تعتبرها ملكيتها الخاصة ,هذا إن لم يكن الحاكم نفسه يعتبر أن هذه الأموال ملكا له من دون الناس ,ولم تكتف الدول القائمة في العالم الإسلامي بأكل أموال المسلمين بل فرضت على فقرائهم من الضرائب ما أثقل كاهلهم وزاد في فقرهم.

الضرائب:

- **ضريبة الجمارك ,لقد اتخذت ضريبة الجمارك مصدرا رئيسيا لملكية الدولة ,إنها ضريبة فرضت على المواد الإستهلاكية يتحمل وزرها كل من يستهلك شيئا من المواد .أما التاجر الذي إستوردها فإنه أضاف ضريبة الجمارك على سعر الكلفة , وحافظ على أرباحه .وبهذه الحالة تكون الدولة بدلا من رعاية شؤون الناس إنما تقوم على أكل أموالهم وملاحتقهم على لقمة العيش ,فإية رعاية هذه ,فلا بد للأمة أن تتذكر ان رسول الله ﷺ يقول ﴿ لا يدخل الجنة صاحب مكس ﴾.[1]**
- **لم تنج ناحية من نواحي الحياة من الضرائب ,كضريبة تسجيل بيت إشتراه ,أو الحصول على رخصة لبناء بيت ,أو فتح مدرسة ,أو فتح مشغل أو أي جانب من جوانب الحياة المتعددة .حتى تصديق شهادة أو تقديم عريضة أو طلب فقد إبتدعوا لذلك ما يسمى بالطوابع المالية.**
- **وضع القيود على الصادرات أو الواردات من حيث الإجازة بذلك أو المنع.**
- **فرض الخضوع في المعاملات الإقتصادية إلى النظام الربوي ,وإستصدار الفتاوي الرخيصة التي أباحت المعاملات الربوية إلى غير ذلك.**

[1] أورده أبو داود في سنن أبي داود ، رقمه : 2937 ، حكمه : سكت عنه (وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح)

فلا بد أن تعي الأمة وعيا كاملا على نهب خيراتها وإبتزاز أموالها ودفعها لإستنكار ما يحيق بها من ظلم وتعسف.

أما من الناحية الإجتماعية:

إن الإله الجديد – الدستور والقانون – تعهد أن يفتت جميع القيم الرفيعة والتقاليد الحميدة ,وأن ينحدر بالإنسان إلى مستوى الحيوان إن لم يكن أدنى من ذلك .وعلى سبيل المثال لا الحصر ,فقد أباح القانون المنبثق عن الدستور والذي سنه الرب الجديد – السلطة التشريعية – أباح هذا القانون الزنا إن تمت العملية برضى وإختيار الطرفين هذا من حيث الإباحة أما من حيث الحماية فقد يخشى الفاعلان تحرك تلك القيم الرفيعة في نفوس الأهل .وأعني قيمة العرض والمحافظة عليه ,قد يخشى الفاعلان تصرف الأهل والإقدام على قتلهما أو قتل أحدهما فيذهبا للقاضي أو للشرطة لحمايتهما .والقانون قد أوجب على القاضي وعلى الشرطة حمايتهما , فيقوم الأمن بإستدعاء الأهل وياخذ عليهم العهود بعدم المساس بهما ,هذا ما شرعه الرب الجديد ,هذا في جميع الأقطار والكيانات القائمة في العالم الإسلامي .أما في بعضها فقد أقام الإنكليز والفرنسيون دورا خاصة بالدعارة في أمهات المدن الإسلامية كالقاهرة والقدس وحيفا وبغداد وبيروت ودمشق وأنقرة وإستانبول وغيرها ,ثم إستبدلت الأسماء مع تقدم الثقافة الرأسمالية إلى أسماء جديدة مثل النوادي الليلية ,أو مدينة الملاهي أو غير ذلك.

إن الإله الجديد – القانون – قد أباح الخمر التي وصفها شرعنا بأنها أم المعاصي إلا أن هذا الإله الجديد جعلها مباحة .فايها تقبلين أيتها الأمة ما أباحه الإله الجديد ,والتعدي على حدود الله ,أو الإلتزام بما أمر الله وتحريم الخمر بكل أنواعها وما يتعلق بها من عصر وإعتصار وبيع وشراء فقد قال رسول اللهﷺ ﴿ لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر عشرة عاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وساقيها وبائعها وآكل ثمنها والمشتري لها والمشتراة له ﴾.[1]

المقامرة:

[1] أورده الألباني في تخريج مشكاة المصابيح ، رقمه : 2707 ، حكمه : صحيح لغيره .

لم تكتف الدول القائمة في العالم الإسلامي بإفتتاح نوادي القمار ,والتفنن في الوسائل المستعملة في ذلك حتى باشرت هي المقامرة مع الناس كل الناس بإسلوب خبيث و هو ما يطلقون عليه" اليانصيب ."نعم هي عملية إمتصاص لأموال الناس مغطاة بما يعلن عنه من أرباح لزيد أو عمرو .إلا أن القصد الحقيقي هو إغراق الناس كل الناس بالميسر ,ومثله حلبات السباق وما يجري فيها.

هذا بالإضافة إلى سياسة كم الأفواه وقطع الأرزاق وقطع الأعناق ,فالإعتقالات والتعذيب والحبس العرفي والسجن الإحتياطي دون تقديم للمحاكمة والتفنن في وسائل الإرهاب.

هذه بعض القضايا الأساسية الهامة التي تعاني الأمة منها والتي على الحزب أو التكتل التصدي لها ودفع الأمة كذلك للتصدي لها ونبذها.

أما عن عزة الأمة ومجدها وكرامتها فحدث عنها ولا حرج ,فلم يترك الحكام بابا يمكن أن يعيد للأمة عزتها ومجدها إلا أغلقوه وأحكموا رئاجه .فالتجزئة وتقسيم الأمة إلى كيانات متعددة من العناصر الأساسية في إضعاف الأمة وتحطيم عزتها .فلم يكتفي بالتمزيق على الأساس القومي بل تمادى الأمر فمزقت القومية الواحدة إلى عدة كيانات ,وترك مسمار جحا في كل كيان ,أو لنقل قنبلة موقوتة يصار إلى تفجيرها في الوقت المناسب ,بحيث يبقى كل كيان من هذه الكيانات مشغولا بذاته ,غارقا في مشاكله .وبدلا من أن تكون الأمة المطلوب منها الشهادة على الناس قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [0]بدلا من ذلك صارت ميدانا للصراع بين الدول المستعمره والطامعة ,بل أنها تعتبر في نظر الناس مزرعة لتلك الدول أقاموا عليها نواطير يحفظون لها هذه المزرعة ويحمونها من أي طارئ أو تغيير.

و من أطرف ما حدث في مؤتمر لندن سنة **1905** إلى سنة **1907** والذي إشترك فيه سبعة دول أوروبية إتخاذ القرارات بشأن المنطقة ,والتي لم تكن بعد تحت نفوذهم أو سلطانهم . وكان من تلك القرارات إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين ,وحمايتها ورعايتها وتقويتها لتفصل بين عرب المشرق وعرب المغرب ,وتصويرها أنها البعبع المخيف لدول وشعوب المنطقة كلها , وإمعانا في التضليل تقوم هذه الدويلة اليهودية بتحدي العالم وإعلان العداوة لجيرانها بحيث

تصبح العداوة بين المسلمين واليهود ,وتنتهي عداوة إستمرت ألف وأربعمائة سنة بين المسلمين والنصارى .إبتداء من معركة مؤتة وإنتهاء بالحرب العالمية الثانية ,مرورا باليرموك والأندلس وسهل بواتيه والقسطنطينية والبلقان والحروب الصليبية .وإذا بمؤتمر لندن يمحو من أذهان المسلمين عداوة النصارى وطردهم من الأماكن التي كانوا فيها كالأندلس والبلقان والقوقاز والهند وغيرها . نعم إستطاع هذا المؤتمر تحويل النفوس وكسب ود المسلمين حتى أصبح خطيبهم في خطبة الجمعة يقول بكل صراحة بمناسبة وغير مناسبة إخواننا النصارى .وباتت هذه الأمة العظيم تلاعب وتخشى ذلك القط الصغير وتستنجد بالنصرانية لحمايتها من الصهيونية العالمية حسب تعبيرهم.

فإذا نجح هذا التنظيم أو ذلك الحزب بالقيام بهذه الأعمال جميعها فإنه من المحتمل جدا أن يكون قد أخذ ثقة الأمة ,ولكنها الثقة في أدنى مراحلها .فلو طلب منها القيام بعمل ما ترددت ,وقد لا تقوم به ,لذا لا بد من القيام بأعمال معها لتحقيق أهداف قريبة تشعر الأمة بأنها قادرة على التغيير .إلا أن هذا الطريق قد سلكت فئات كثيرة وما زالت .فهي تعمل على إستنزاف البقية الباقية مما في الأمة من حيوية .فهي تدعوها بمناسبة أو بلا مناسبة ,لهدف أو بلا هدف تدعوها للخروج معها في مظاهرة ,أو إضراب أو مسيرة إحتجاج أو غير ذلك ,دون أن تحس الأمة بأن هذا الأمر لن يحقق شيئا.

والغريب في الأمر أن هذه الأمة المعطاءة الكريمة التي تجود بنفسها وبأفلاذ كبدها , وتضحي بالغالي والنفيس حين الدعوة للجهاد وحمل السلاح والقتال .إلا أنها لا تستجيب للقيام بمحاسبة الحاكم ,أو الأخذ على يده ,أو العمل على الإطاحة به بالرغم من خروجه على مفاهيمها وقيمها وعاداتها وتقاليدها ,وبالرغم مما ترى منه من ظلم وتعسف وجبروت وفساد ,فهي تكتفي بالدعاء عليه ليلا ونهارا أن ينتقم الله منه ويريحها من شره فكيف هذا التناقض؟ على أن أعود لتاريخها.

منذ أن أقام الرسول ﷺ دولته في يثرب بل يوم بيعة العقبة الثانية قال القوم لرسول الله ﷺإن شئت لنميلن على أهل منى بأسيافنا .فقال رسول اللهﷺ ﴿ لم نؤمر بعد ﴾ [0]وفي المدينة بدأ رسول الله ﷺ بتجهيز السرايا ,وإرسالها بمهام إستطلاعية ,وترصد أخبار قريش ,وبدأت

الحرب الفعلية بين الإسلام والكفر إبتداء من معركة بدر حتى غزا رسول الله ﷺ سبع عشر غزوة () قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى ,وعقد اللواء لأسامة بن زيد ليغزو الروم على تخوم الأردن وجاء خلفاؤه من بعده فسيروا الجيوش إلى العراق والشام وفلسطين ومصر حتى بلغوا الأندلس غربا وحتى أسوار الصين شرقا ومن بحر العرب جنوبا إلى أواسط القوقاز وغربا حتى أسوار فينا ,فما ضعفوا وما استكانوا فتكونت أمة خلال أربعة عشر قرنا أمة بيت عزها الجهاد ,وطريق مجدها القتال في سبيل الله ومازالت تلك الدماء الساخنة هي التي تجري في عروق أبنائها ,وتستنهض همهم ,فلا يقر لهم فرار كلما دعوا إلى الجهاد أو سمعوا منادي حي على الفلاح.

أما القيام لمحاسبة الحاكم فإن الأمة لم تباشر هذا العمل بشكل منظم كما حصل بالنسبة للجهاد ,بل مارسه أفراد ,وقفوا مواقف رائعة ,ما زال التأخير بذكر تلك البطولات .أما الأمة كأمة ,أو بشكل جماعي على الأقل فإنه لم يحصل ,ونستعرض بشكل موجز تاريخها كما فعلنا بإستعراض الأمر في قضية الجهاد.

إن القيام بالأعمال الجماهيرية تتطلب قيادات تحرك الجماهير وتقودها إلى الهدف الذي رسمته القيادة ,لأنه مهما إرتفعت حرارة المشاعر ,ومهما غلت النفوس بالإنفعال فرحة أو نقمة فإنها لا تبادر للقيام بالعمل المعبر عن مشاعرها ,والمتجاوب مع أحاسيسها إلا إذا إندفعت من صفوفها قيادة تسير أمامها وتوجهها ,فإذا إنطلقت تلك شرارة أشعلت مخزون الأحساس في النفوس فاندفعت كالسيل العرم لا يقف في وجهها شيء .ولهذا كان لا بد من قيادة تعرف كيف تنجز تلك الطاقات في الأمم وعلى الأغلب الأعم فإن الأقدر على هذا العمل هو الحزب السياسي الذي حصل على ثقة الناس ,أو القائد المحنك الذي أحرز ثقة الناس كذلك ,وعقدت عليه أمالها والقدرة على تحقيق هدفها.

على ضوء ذلك نلقي نظرة عميقة على تاريخ أمتنا منذ بعثة الرسول ﷺ حتى يومنا هذا.

- أ –كان الموقف الواضح والإندفاع الجماهيري البارز في صدر هذه الأمة يوم الهجرة فقد خرجت المدينة عن بكرة أبيها تستقبل رسول الله ,()فهل كان ذلك الإندفاع عفويا أم أن عناصر العمل الجماعي كانت متوفرة فيه.

- كان على قيادة الناس في تلك التظاهرة العارمة زعماء الناس الحقيقين أمثال سعد بن عبادة سيد الخزرج رضي الله عنه وسعد بي معاذ سيد الأوس ,وكل منهما أمير في قومه في الجاهلية وفي الإسلام.

- كانت مشاعر الناس ملتهبة للخروج لإستقبال رسول الله ﷺ ولغايات مختلفة , فالمؤمنون فرحين منتظرين مجيئه بفارغ الصبر خصوصا وأن الكثير منهم أمن به ولم يره.

- خرجت اليهود لإستقباله كذلك لعلها تستطيع أن تثنيه عن طريقه ليسير فيما تراه لصالحها .خصوصا وأن واقعها من كونهم أهل كتاب يمكنهم من لعب ذلك الدور ,أو على الأقل الدس على المسلمين وتضليلهم.

- المنافقون وقد قذف الله في قلوبهم الرعب فأرادوا إثبات إخلاصهم بأدنى ذي بدء حتى يتمكنوا من العمل.

- حب الفضول من جميع الناس لمشاهدة أمر غريب لم يعهدوه من قبل .وقد عرفت قيادة الناس كيف يخرجونهم لأستقباله ﷺ وتحت وطأة هذا الإنفعال قطف رسول اللهﷺ ثمرته سواء في إستقباله وفرض إحترامه على الناس كل الناس ,أو في إملاء الدستور على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ,وإلزام الحضور بالتوقيع عليه المؤمنون والمسلمون واليهود.

- **ب –يوم أحد**

كان وسام الشرف الذي حصل عليه شهود بدر وهو رضوان الله تعالى أكبر حافز للنفوس ,خصوصا أولئك الذين لم يشهدوا بدرا .فلما سنحت الفرصة للحصول على ذلك الوسام خرجوا في مظاهرة سلمية يطالبون بتحقيقه .كان ذلك يوم أحد إذ جمعت قريش الجموع وقدمت لغزو المدينة ,فاستشار الرسول ﷺ كبار الصحابة وزعماء المدينة فما اختلفوا في رأي ,وأشاروا بالتحصن في المدينة ,وقد قال أهل المدينة في مشورتهم

ومنهم عبد الله بي أبي بن سلول" يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ,فو الله ما خرجنا إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إصبنا عنه ,فدعهم يا رسول الله , فإن اقاموا أقاموا بشر محبس ,وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ,ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ,وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا "إلا أن الناس كثروا على رسول الله ﷺ يطلبون لقاء عدوهم خارج المدينة ,حتى إستجاب لهم الرسول , ودخل بيته ولبس لامة حربه ,وخرج لقتال قريش في ألف من أصحابه وكان من أمر المعركة ما كان.()

- ج –أما التظاهرة الكبرى ,والإندفاع الجماهيري الفظيع تلك كانت فتنة الدار التي قتل فيها رئيس الدولة الخليفة عثمان بن عفان رضوان الله عليه .تلك التظاهرة التي خطط لها بإحكام ونفذت بنودها بدقة فأتت أكلها وحققت جزءا كبيرا من هدفها ,إلا أن الموقف المطلوب من أهل المدينة هو الدفاع عن أميرهم ورئيس دولتهم ,وعدم إفساح المجال للثوار للتطاول على إمام المسلمين مهما كانت الظروف حتى ولو أقسم عليهم الخليفة أن يخلوا بين المتظاهرين والخليفة فكان الأولى بالناس أن يتصدوا لهذه الوفود وعندهم القدرة على ذلك إلا أنهم لم يفعلوا ,لأنه كما قلنا أن الجماهير لا تتحرك إلا بقيادة .وقد كان الناس في المدينة تنقصهم القيادة لقمع الفتنة ,مع أن الكثير من كبار الصحابة كانوا في المدينة ,إلا أنهم لم يقوموا بالتصدي للمتظاهرين لسبب أو لأخر ,وكما يقول البعض فقد كان كبار الصحابة مدركين أن الأمر دبر بليل وأنه لو خرج أحدهم لقتله المتظاهرون ,وذلك لإشاعة الفوضى في عاصمة الدولة وبالتالي هدم الإسلام من أساسه , هذا ما يفسره بعض المفكرين لموقف الأمام علي كرم الله وجهه وأمثاله,فقد كانوا هم المستهدفين.

بعد هذه الحادثة لم تقم إحتجاجات جماهيرية سياسية ,بل قامت بعدها حركات مسلحة كانت تستهدف الحكم بالإسلوب العسكري .مثل خروج طلحة والزبير في معركة الجمل ,وخروج معاوية بي أبي سفيان في معركة صفين ,وخروج الخوارج على الإمام علي كرم الله وجهه في معركة

النهروان ,وخروج الحسين رضي الله عنه على يزيد بن معاوية فقد كانت هذه الحركات الجماهيرية حركات مسلحة تستهدف الحكم بإسلوب عسكري ولم تقم حركة جماهيرية سياسية واحدة طيلة الأربعة عشر قرنا.

نعم كان في الأمة ,وطيلة عهودها أشخاص وفقهاء وزعماء تصدوا للخليفة أو للولاة , فمنهم من عذب ومنهم من سجن ومنهم من قتل ,ولم يخل عصر من العصور إلا وجد الكثير من هؤلاء ,ولكنهم قاموا بمحاسبة الحاكم بصفة فردية ,ولم تقم حركة جماهيرية واحدة لتحاسب الحاكم أو تضرب على يده .وكل الذي حصل إما خروج بالسيف وإما محاسبة فردية ,حتى أن موقف العز بن عبد السلام رضي الله عنه بوجه السلطان كان موقفا فرديا ,مع أن أهل مصر جميعا خرجوا معه حين أمر السلطان بطرده من البلد ,مما جعل السلطان يتنازل عن رأية لرأي العز بن عبد السلام رضي الله عنه ويلحق به ويعيده إلى بيته معززا مكرما ,إلا أن هذه الحادثة لا تعني أنها حركة جماهيرية قامت بمحاسبة الحاكم ,لأن العز بين عبد السلام رضي الله عنه لم يكن منظما لها ,ولم يطلب من الجماهير القيام بما قامت به ,بل كان تحرك الجماهير ذاتيا ,وتضامنا مع العز بن عبد السلام لما له في نفوس الناس من مكانة وتقدير والسبب في ذلك أمران:

- الأمر الأول :وهو الشرخ الذي أحدثه معاوية منذ أخذ البيعة لولده يزيد في حياته وأصبح الحكم شبه وراثي ,وكأن الناس قد إستهوتهم الفكرة فأقروها وذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ومجاورتهم للفرس والروم ,وما أصاب الأمة من تقتيل وتشريد بسبب التنازع على السلطة حتى سيطرت على أذهان الناس مقولة – سلطان غشوم خير من فتنة تدوم –فكانت الأمة تصبر على ما يلحقها من جور وظلم .خصوصا وأن عقيدتها لم تمس , وإسلامها عزيز ,وجيوشها تقاتل الكفار ,وتخضع الأمم لسلطان الإسلام ,بالإضافة إلى إنتشار النصوص الموجبة لطاعة أولى الأمر من مثل قوله تعالى ﴿ وأطيعو الله ورسوله وأولي الأمر منكم ﴾ [1]وكقولهﷺ ﴿ تسمع له وتطيع وإن أكل مالك وجلد ظهرك ﴾ [2]كل هذا ساعد على الرضوخ والأستكانة إلى جور الظلمة من الحكام ,وإستبداد السلاطين , وأنهم لم يخرجوا على الإسلام ,ولم يتركوا الحكم بما أنزل الله ,ولم يظهروا الكفر البواح

الموجب للخروج عليهم ,ولهذا بقيت محاسبة الحكام أعمالا فردية .وقد قام بها الكثير من الناس والعلماء.

- وأما الأمر الثاني :عدم وجود الأحزاب السياسية في الأمة وفهمهم لقوله تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [1]فقد فهموا أن هذا الأمر للأمة بحيث تصبح كيانا فكريا سياسيا واحدا ,ولهذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أعمالا فردية ,وكانت الدعوة إلى الخير أي إلى الإسلام تتم بالجهاد وبسط سلطان الإسلام على البلاد المفتوحة لتبصر صدق الأفكار وعدالة التشريع فتدخل في الإسلام أفواجا ,كما أن الدعوة إلى الخير حملت كذلك على المحمل الفردي في كثير من الحالات ,كالتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة والتواصي بالحق ,أو حمل الإسلام من قبل الأفراد والجماعات إن تواجدوا في بلاد الكفر أو إلتقوا بكافر .وقد نجحت مثل هذه الأعمال فقد إعتنقت إندونيسيا الإسلام دون قتال ,ولم يوجف عليها بخيل ولا ركاب بل كانت بجهود التجار وحملهم للإسلام إلى تلك الأصقاع ,وقد كان المسلمون يرون أن وجودهم في الحياة الدنيا لله تعالى ,أي لحمل دعوة الله تعالى ,مصداقا لدعاء التوجه في الصلاة ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [1]إذن فعمل المسلم الأساسي هو حمل الإسلام ,وأما أعماله الدنيوية ومكاسبه فيها إنما هي لتعينه على عمله الأساسي ,ولم تكن قد تبلورت فكرة التكتل الحزبي.

مع أن فهم الأية الكريمة ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [1]يعني وجود أمة أي فئة من المسلمين تكون مهمتها الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .وهذا يعني وجوب وجود تكتل سياسي واحد على الأقل يقوم بهذا العمل المنوط به وهو الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكل يغطي الحاجة إلى هذا الأمر .وهذا يعني وجوب وجود أحزاب سياسية تقوم على تثقيف الناس بالإسلام ليبقى الإسلام حيا باعثا للحيوية والإندفاع في النفوس ,وتقوم كذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى رأس هذا العمل محاسبة الخليفة ومن دونه ,ويعزز ذلك قول

رسول اللهﷺ ﴿ لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم ﴾ [1]وغيره من الأحاديث الموجبة محاسبة الحاكم وردعه عن ظلمه ,وحتى تكون تلك المحاسبة فاعلة مؤثرة فلا بد أن يكون القائم بها ذا أثر فعال ,وبما أن الفرد مهما كانت أهليته فإنه أعجز من أن يؤثر في تصرفات الحاكم ,إلا من رحم ربي.

ومن هنا كانت الحركات السياسية شبه معدومة ,وكان التحرك الجماعي في الأمة في المجال السياسي شبه معدوم كذلك ,ولا يعني ذلك أبدا خنوع الأمة وإستكانتها ووصولها إلى حالة اليأس .لأن الملاحظ عليها أنها تستجيب وبمنتهى القوة والحماس للدعوة إلى الجهاد بل إن فكرة الجهاد تجري مع الدم في نفوس المسلمين ,ولأنها عاشت حالة الجهاد الفعلي طيلة أربعة عشر قرنا ,بينما لم تقم بتحرك جماهيري إلا نادرا .والغريب في الأمر أن كبار الأئمة والمجتهدين ,والذين ما زالت الأمة تسير في حياتها بحسب إجتهادهم ,فهذا مالكي وذاك حنفي وأخر جعفري وحنبلي وشافعي ومن أمثالهم الكثير لم يهتموا كثيرا بهذه المسألة ,مع أن إجتهاداتهم تناولت أحكام هذا الأمر مجملة مرة ومفصلة أخرى ,إلا أنهم هم أنفسهم لم يدعوا الأمة إلى تكتل سياسي أو تحرك عملي فيما إجتهدوه من وجوب محاسبة الحاكم أو غير ذلك من الأعمال .وقد كانوا هم يمارسونها بشكل فردي ,فهذا مالك يعظ الرشيد المرة تلو المرة وكان لا يدعه حتى تبتل لحية الرشيد بدموعه ,وهذا إبن حنبل يقف بوجه المأمون وخلفه في مسألة خلق القرأن وهذا أبو حنيفة يمتنع عن تولي القضاء بالرغم من أمر الخليفة له.

ويبدو لي أن السبب في هذا إنما يعود للأسباب التي ذكرتها أنفا ,عدم قيام الخليفة أو الحاكم بما يوجب الخروج عليه ,فلم يظهر أحدا من الخلفاء الكفر البواح .وأما ما دون ذلك فإن أحكام وجوب الطاعة ﴿ تسمع له وتطيع وإن أكل مالك وجلد ظهرك ﴾ [2]كانت هذه الأحكام حائلا دون قيام الأمة بشكل جماعي للتغيير على أولي الأمر.

ولهذا ظلت الأمة بعيدة عن التحرك السياسي الجماهيري ,وإقتصرت بمحاسبة الحكام والدعوة إلى الخير على الأعمال الفردية والتحرك الفردي.

ومن هنا كانت الدعوة شاقة ,والإستجابة عزيزة ,والتحرك نادر جدا ,إلا أن يوجد من تعطية الأمة ثقة غير عادية فتستجيب له .ولهذا كان على أي تكتل أو تنظيم محاولة إحراز ثقة الأمة لجعلها تساس له القيادة ,وبناء عقليتها على الإحساس الجماعي والتحرك الجماعي ,ودفعها إلى مباشرة هذا الأمر بنفسها.

إلا أن هذا الأمر يتطلب من هذا التكتل القوام على هذا الأمة أن يطرح أفكاره وأحكامه وأراءه على الناس ,وأن يجسد هدفه تجسيدا يبين للأمة حدود ما يدعوها إليه ,فلتحاسبه قبل تحقيق الهدف إن لم تقتنع بأدلته التي إستند إليها حين حدد هدفه أو إستنبط أفكاره وإلا فإن عليها أن تحاسبه بعد الوصول لهدفه بناء على ما لوح به من أحكام وأراء قبل الوصول وما رفع من شعارات ,وما طرح من أماني.

فمثلا إن طرح هذا التكتل في محاولة تجسيد هدفه بتنفيذ هذه الفكرة فإن على الأمة أن تقوم على محاسبته وإجباره على تنفيذها.

أوإن بين أن الدولة ستوفر جميع الحاجات الضرورية للمجتمع كالتطبيب والتعليم والأمن فعلى الأمة أن تحاسبه إن قصر عن إيجاد مستوصف لحي من الأحياء أو مدرسة لقرية من القرى.

وهكذا ...فإن على أي تكتل أو تنظيم يسعى لتحقيق هدف ما فإن عليه أن يبين هذا الهدف للأمة ,ويشجعها على محاسبته عند تقصيره عن تنفيذ ما كان قد أوعد به الأمة .ومن هنا تظهر أهمية تحديد الهدف لجعل الأمة هي معيار الإلتزام ,وأداة الضبط ,وصمام الأمان .أما إن ذلك لم يقم به رسول الله ﷺ فذلك لأنه ﷺ ومعه المؤمنون ينتظرون التشريع من الوحي فهو المسير لهم في تنظيم حياتهم فكانت الأحكام تتنزل على الوقائع الجارية .ولم يكن الرسول موضع نقاش أو تساؤل فالجميع ينتظر الوحي .ولهذا حين هاجر رسول الله ﷺ إلى يثرب نزل عليه الوحي بإملاء الدستور .أما الأن فإن الوضع مختلف عن ذلك تماما ,فالأحكام قد إكتملت , وأصبح تحديد الهدف في متناول اليد ,فهو في بطون الكتب إن لم يكن مجتهدون هناك.

مملاة الحاكم

إجتمع أشراف قريش منهم عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة وأبو سفيان وأبو جهل وغيرهم فقال بعضهم ابعثوا إلى محمد فكلموه ,وخاصموه حتى تغدروا فيه ,فبعثوا إليه :إن أشراف قومك قد إجتمعوا لك ليكلموك فأتهم .فجاءهم رسول اللهﷺ سريعا وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء .وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم .فقالوا :يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ,وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ,لقد شتمت الأباء ,وعبت الدين ,وشتمت الألهة ,وسفهت الأحلام ,وفرقت الجماعة ,فما بقي أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك – أو كما قالوا – فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ,وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا فنحن نسودك علينا ,وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا – فربما كان ذلك ,بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه ,أو نغدر فيك .فقال لهم رسول اللهﷺما بي ما تقولون ,ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ,ولا الشرف فيكم ,ولا الملك عليكم ,ولكن الله بعثني إليكم رسولا ,وأنزل علي كتابا , وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ,فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ,فإن تقبلوا متى ما جئتكم به فهو حظكم في الدينا والأخرة ,وإن تردوه علي أصبر لأمر الله ,حتى يحكم الله بيني وبينكم – أو كما قال –ﷺ قالوا يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك , فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحدا أضيق بلدا ,ولا أقل مالا ,ولا أشد عيشا منا ,فاسأل ربنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال...إنتهى ما جاء في السيرة النبوية لإبن هشام.[0]

كما أن موقفه حين كلمه عمه في هذا الأمر ,فقال كلمته المشهورة والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الأمر أو أهلك دونه.[0]

وقالﷺ ﴿ خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا صار رشوة في الدين فلا تأخذوه، ولستم بتاركيه يمنعكم الفقر والحاجة، ألا إن رحى الإسلام دائرة فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما

لا يقضون لكم إن عصيتموهم قتلوكم وإن أطعتموهم أضلوكم، قالوا :يا رسول الله كيف نصنع؟ قال :كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم نشروا بالمناشير وحملوا على الخشب، موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله ﴾[1]

قال تعالى ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾.

إن هذه المواقف من رسول الله ,ﷺ وهذا الأمر الصريح الواضح بوجوب الوقوف بوجه الظلمة من الحكام ,حتى ولو كنت متأكدا من القتل ,فقوله كما فعل أصحاب عيسى ,شدوا على الخشب ونشروا بالمناشير ,فهل أوضح من ذلك الأمر؟ .إن هذه النصوص لم تطلب منا عدم التقرب منهم ,ولم تطلب منا عدم التودد لهم أو مملاتهم ,بل هي تطلب منا رفض قبولهم وقبول مودتهم ,أو تقربهم منا .إن ما طلبه الشرع منا أن نتصدى لهم ونغير عليهم ,فقد قال رسول اللهﷺ ﴿من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة رسول الله) (ﷺيعمل في عباد الله بالإثم و العدوان ، فلم يُغيِّر عليه بقول و لا فعل كان حقاً على الله أن يدخله مدخله ﴾

[1] أورده أبو نعيم في حلية الأولياء ، رقمه : 5/188 ، حكمه : غريب من حديث معاذ

مرحلة الترف الفكري

إطمأن أهل الذمة إلى وجودهم فنفوسهم محفوظة بأمان ,ويؤكد لهم ذلك ما سمعوا من حديث رسول اللهﷺ ﴿من آذى ذمياً فقد آذاني ﴾[1]كما إطمأنوا إلى المحافظة على أعراضهم وأموالهم ,كيف لا يطمئنوا وهم يسمعون ما لهم من الإنصاف وعليهم ما علينا من الإنتصاف . ونتيجة لهذه الطمأنينة وإنطلاقا من العداء التقليدي بين الإسلام والكفر ,ونظرا لتمتعهم بحق التعبير عن الرأي تسلح بعضهم بالفلسفة اليونانية محاولا تشكيك المسلمين بعقيدتهم في مسألة القضاء والقدر ,أو البحث في صفات الله ,وغير ذلك من البحوث الفلسفية ,مما دفع المسلمين كذلك للرد عليهم بنفس السلاح – الفلسفة اليونانية – وكبحوث ومعارف جديدة إستهوت الكثير من المسلمين نشأت مدارس جديدة متأثرة بالفلسفة اليونانية وخاضت وأسرفت في مواضيع الفلسفة اليونانية نفسها ,وتوصلت إلى أراء غريبة عن أذهان المسلمين ,وما إن طرحتها حتى بادر أخرون بالرد عليها وبنفس الإسلوب وبنتيجة بعيدة عن فكر المسلمين وإعتقادهم . فأدى ذلك إلى وجودج مدرسة ثالثة وبنتيجة مختلفة عن سابقتها ,وأعني بذلك أن الفئة الأولى كانت المعتزلة ,والفئة الثانية كانت الجبرية ,والفئة الثالثة كانت أهل السنة .كما تشبعت هذه الفرق الثلاث إلى مدراس متعددة ,يجمعها كلها علم الكلام ,وسموا جميعا المتكلمون ,وقد قامت بحوثهم جميعا على الإفراط في إستعمال العقل حتى جعلوه حكما على نصوص القرأن الكريم ,وإستعملوا أسلوب التأويل في معاني الايات المخالفة في ظاهر معناها إلى ما توصلوا إليه في بحوثهم .إن هذا الإفراط في إستعمال العقل ,والإندفاع وراء هذه المدارس ,والإقبال على هذه المعارف الجديدة أدى بهم إلى عدم الإهتمام بدراسة القرأن الكريم ,والتهاون في التعبد به , وقد وضع هذا الواقع الجديد بعض المؤمنين إلى إيجاد نمط أخر من المعارف .المعارف التي تكتسب بالروحانية والحدس ,والإرتفاع عن الواقع المادي والهروب منه ,فوجدوا في الفلسفة الهندية متنفسا ,فنشأت مدرسة التصوف ,ومما يؤكد أن نشوء هذه المدرسة إنما كان ردة فعل على مدرسة علم الكلام ,هو ما قام به الإمام الغزالي رضي الله عنه أمام المتصوفة بالرد على الفلاسفة في كتابه تهافت الفلاسفة .ورد عليه إبن رشد في كتابه تهافت التهافت .وتعددت

[1] أورده ابن تيمية في مجموع الفتاوى ، رقمه : 28/653 ، حكمه : كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم

مدارس التصوف ,وسميت بالطرق الصوفية ,وكان لكل طريقة شيخ له مريدون وأتباع ,ومع تلاشي الفئات الأولى الثلاث وبقا إسلوبهم في التفكير وهو ما يسمى علم المنطق ,أو علم الكلام ,إلا أن حركة التصوف إستمرت وما زالت منتشرة في كثير من اقطار المسلمين ,ولست الأن بصدد ما جاءت به من أفكار ,وما تقوم به من أعمال ,وإنما أنطلق ببحثي هذا من زاوية واحدة هي قضية المسلمين المصيرية ,قضية المسلمين الأولى ,وهي وجود الإسلام في واقع الحياة ,وجود الإسلام محكما في علاقات الناس جميعا ,وجود الإسلام قواما على المسلمين تنفذ قفيهم أحكامه وتسير أعمالهم بموجبه ,وترعى شؤونهم بشريعته ,ينضدون تحت رايته ,ويقاتلون تحت لوئه , وينشرون أفكاره ,ويطبقون عدالته عليهم وعلى أهل ذمتهم .نابذين لحكم الجاهلية في العالم أجمع ,حتى يصل هذا الدين للبشرية جميعها .هذه هي الزاوية التي أنظر منها ,وأسأل أليس هذه المسألة فرضا على جميع المسلمين أينما كانوا؟ أليست هذه هي قضيتهم الأولى؟ اليس القعود عنها إثما مبينا؟ فإن كان ذلك كذلك فهل ما يقومون به هي الطريق التي رسمها رسول الله ﷺ وسار عليها؟ وهل ما يقومون مطابق لنهج القرأن الكريم في الدعوة ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ﴾[1]

الطرق الصوفية

تختلف الطرق الصوفية إختلافات بسيطة أو كبيرة فيما بينها, وتختلف تفسيرات كل منها عن غيرها لمعنى الصوفية. كما تختلف هذه التفسيرات جميعها عن تفسيرات المعلقين والمحللين والكتاب, ولست بمعرض مناقشة هذه المعاني من حيث إنطباقها على واقع تلك الطرق أو واقع المنتمين لتلك الطرق من مشايخ أو مريدين. لأن المسألة المبحوث عنها الأن هي الحكم بما أنزل الله. هل الحكم بما أنزل الله فرض على المسلمين أم لا؟ المسألة المبحوث عنها هي إيجاد الإسلام في واقع الحياة, أو بعبارة أخرى إستئناف الحياة الإسلامية. وإستئناف الحياة الإسلامية يعني تحكيم الإسلام بجميع تصرفاتنا, في علاقاتنا بالله, وفي علاقاتنا بعضنا ببعض, وفي علاقاتنا مع غيرنا من الناس من كافرين أهل ذمة, أو كفرة معاهدون, أو كفرة مستأمنون, أو كفرة محاربون حكما أو كفرة محاربون فعلا, أو في علاقاتنا مع أنفسنا. تحكيم الإسلام في كل شيء. قال تعالى ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾[1] وقال ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾[2] وقال ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً ﴾[3] وقال ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[4].

فالإسلام حدد لنا كيفية تصريف أفعالنا, وتسيير أعمالنا, وسيحاسبنا على كل مخالفة أو تقصير. وبين لنا أن هذا الدين قد إكتمل, وأن هذه النعمة قد تمت. والإنسان المسلم ملزم بإلتزام ما جاءه من ربه كاملا, كما أنه ليس بحاجة إلى تشريعات قانونية لأن الإسلام كاملا شاملا لكل نواحي الحياة, كما أنه لا يجوز أن يستعيض عن التشريع الإسلامي بقوانين وضعية. فلا يجوز له أن يلتزم أحكام العبادات وأحكام العالقات الشخصية كالزواج والطلاق والإرث, ويترك الإلتزام بإحكام الإقتصاد والحكم, فهو ليس بحاجة إلى مجلس تشريعي "مجلس النواب" لسن القوانين.

1
2
3
4

إن هذه الأمور أحكام عامة تخاطب جميع الناس, تخاطب الحاكم والقاضي والأمير والوزير والسري والثري والفقير والمسكين, إنها تخاطب جميع المؤمنين, ولهذا كان كل مؤمن ملزم بالعمل على إيجادها في الحياة. هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن هناك أحكاما تخاطب جماعة المسلمين, ولا يتأتى تنفيذها من قبل فرد أو أفراد, وعلى المسلمين تنفيذها ولا يجوز تعطيلها إطلاقا وإلا أثم كل من قعد عن العمل لتحقيقها, وإيجادها في الحياة وقد خوطب بهذه الأحكام من عزف عن الدينا وبها رجها ولبس ثوب التصوف. وزهد حتى في الكثير من المباحات, وتعلقت روحه بخالقها. كما أن من يقول ربنا أتنا في الدنيا حسنة وفي الأخرة حسنة مخاطب بها كذلك, وكذلك من يستدل بقوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1] فجميع المؤمنين مخاطبون بهذه الأحكام العامة وجميع المؤمنين يوجه إليهم قول الله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾[2] كما أن الجميع مخاطبون بأحاديث رسول الله ﷺ﴿ من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة رسول الله (ﷺ) يعمل في عباد الله بالإثم و العدوان ، فلم يُغيِّر عليه بقول و لا فعل كان حقاً على الله أن يدخله مدخله ﴾[3] ويقول ﴿ لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم فتناً كقطع الليل المظلم، تدع الحليم حيران، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم ﴾[4] ويقول ﴿ خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا صار رشوة في الدين فلا تأخذوه، ولستم بتاركيه يمنعكم الفقر والحاجة، ألا إن رحى الإسلام دائرة فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم إن عصيتموهم قتلوكم وإن أطعتموهم أضلوكم، قالوا: يا رسول الله كيف نصنع؟ قال: كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم نشروا بالمناشير وحملوا على

1
2
3
4

الخشب، موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله ﴾[1] وقوله ﷺ ﴿ حد يعمل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحا﴾[2] أو كما قال.

هل هناك أحد ليس مخاطب بهذه الأحاديث من أمة محمد؟ وهل من أحد رفع عنه التكليف إلا من ذهب عقله؟

ليست المسألة دعوة الناس أفرادا وجماعات للإلتزام بالعبادات, أو الإيمان بالله أو الإلتزام بالحلال والحرام. ليست المسألة هذه الأمور فحسب بل المسألة وجود الجهة التي تقوم بما فرض الله على جماعة المسلمين من مثل:

- إقامة الحدود, وقد قال تعالى ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3] وقال ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون ﴾[4]
- رعاية الشؤون وتأمين المرافق العامة للناس, مثل بناء المساجد والمدارس والمستشفيات وشق الطرق وبناء الجسور, وجمع الزكاة, وتوزيع الزكاة, وإستخراج الثروات الطبيعية للمسلمين, وتأمين الماء والكهرباء.
قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[5] ويقول ﷺ ﴿ من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك دينا أو ضياعاً فإلي وعلى ﴾[6]
- حمل الدعوة للعالم للشهادة على الناس تنفيذا للغاية التي جعلنا الله لها خير أمة أخرجت للناس وجعلنا أمة وسطا لنكون شهداء على الناس, وأيات الجهاد في القرأن الكريم قد إستأثرت بالخط الوافر, وطلبت من المسلمين قتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله. فمن يجهز جيوش المسلمين, ومن يعقد لهم الألوية والريات ويوجههم إلى مشارق الأرض ومغاربها.

1
2
3
4
5
6

- حماية الثغور, فمن يحفظ الأمن في الداخل والرسول ﷺ﴿ لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم ﴾[1] فإذا كان الأمر كذلك لا يحل لثلاثة بفلاة من الأرض إلا أن يؤمروا أحدهم فمن باب أولى أن يكون للأمة إمام أو أمير أو سلطان يقوم بما تمليه عليه مهمة الإمارة أو السلطان.

فالمسألة إذن هي عودة الإسلام للحياة, أو إستئناف الحياة الإسلامية وليس مجرد الدعوة إلى الإسلام, لأن مجرد الدعوة إلى الإسلام لا يسقط التكليف بالدعوة إلى إعادة حكم الإسلام, والدعوة إلى عودة الإسلام وإقامة دولة إسلامية تقتضي إيجاد التكتل لذلك الأمر لأن العمل الفردي لا يجزي. وإيجاد التكتل يقضي بأن يكون له أمير للدليل السابق. وهذا التكتل بأميره يستهدف إقامة الدولة الإسلامية, وهذا يقتضي أن يتصف هذا التكتل بكل ما من شأنه أن يحقق الهدف. كتحديد الهدف وتصوره والوعي على العقبات التي تعترضه وبإختصار أن يسلك سبيل الرسول ﷺ وينهج نهج القرأن الكريم في الدعوة.

لقد قلت أنني لا أريد مناقشة ما يقوم به الفرد أو الجماعة فيما تبنت من أحكام شرعية بحقها وما ألزمت به نفسها من أوراد, وما تقربت به من نوافل. ملتزمة بقوله ﷺ في حديث قدسي ﴿ إن الله تعالى قال : من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر فيه ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ﴾[2]

ولا أريد أن أناقش ما وصل إليه الشيخ أو المريد من كرامات مصداقا لقول رسول الله ﷺ ﴿ رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره ﴾[3] ولكني أريد تذكير الواصلين من مشايخ ومريدين, أريد تذكيرهم ولفت نظرهم إلى ما وصلت إليه حال المسلمين في مشارق الأرض

1
2
3

ومغاربها, في يمنها وشامها, لا أريد أن أذكرهم بقوله ﷺ﴿ يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ، قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن، قال: حب الدنيا وكراهية الموت ﴾[1] لا أريد أن التذكير بهذا الحديث, لأن التداعي قد حصل قبل الحرب العالمية الأولى, وإجتمع المدعوون على القصعة, وتقاسموا محتوياتها.

ومنذ ذلك التاريخ وكل طرف منهم يعبث بما خصه من تلك المحتويات. أريد أن أذكركم بهذه الأجزاء المتناثرة المتدابرة من هذه الأمة العاثرة. إنكم ولا شك ترون هذه التجزئة المقيتة في الأمة, وما لحقها من تباغض وتشاحن وحروب مرة بإسم القومية – التي وصفها رسول الله بالنتن – فقال ﷺ﴿ دعوها فإنها مُنتنة ﴾[2] وكأن الناس لم يدركوا نتنها بعد, وبعد ما لحقهم منها ما لحقهم. ومرة بإسم الإقليمية أو الوطنية أو المذهبية.

لا شك أنكم تعانون من التخلف الذي تشاهدونه في هذا الأمة التي من الله عليها لتقود العالم وإذا بها منقادة لأحط شعوب الأرض.

لا شك أنكم تشاهدون أو تسمعون ما يجري من محاولات الإبادة في المسلمين بعد محاولات التحريف والتبديل والتضليل في الإسلام.

ولا شك أنكم تؤمنون بوجوب عودة الإسلام لواقع الحياة وعودة دولته لتعود عزة المسلمين ومجدهم. وللوصول إلى ذلك لا بد من العمل, والعمل إما أن يكون بالكيفية التي عمل بها محمد ﷺ سائرا على النهج القرأني, مثل توضيح العقيدة ومهاجمة العقائد الفاسدة, ومهاجمة أئمة الكفر, ورؤوس الضلال, وبيان فساد العلاقات القائمة في المجتمع وفساد ما ينظم هذه العلاقات من دستور وقوانين ومراسيم إشتراعية, ومؤسسات تقوم على هذه التشريعات, ثم تجسيد الهدف الذي نسعى إليه وبيان وجوب وجوده ووجوب العمل إليه. هذه حالة وإلا فالحالة الأخرى بناء على ما عندكم من مفاهيم أن يغير الله سبحانه وتعالى هذا الحال, وأن يستخلف الله

1
2

المؤمنين في الأرض, ويمكن لهم دينهم الذي إرتضى لهم ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا, وهذا يعني الإستسلام للقدرية الغيبية أو الجبرية الطلقة التي تعتبر أن الإنسان كالريشة في مهب الريح, لا يملك من أمر نفسه شيء ولا حتى إمكانية ممارسة إرادته, مع أن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[1] وهنا جعل تغيير ما في القوم من أوضاع, من نعمة أو بؤس, من سعادة أو شقاء موقوف على قيام الناس بتغيير نفسياتهم – أي بتغيير أفكارهم ومشاعرهم, فإن هم قاموا بتغيير أفكارهم ومشاعرهم – أي الأعراف العامة المتحكمة بعلاقاتهم, فإنه سبحانه وتعالى يغير ما بهم, فإن غيروا للإحسن كان تغييره كذلك, وإن غيروا للأسوء, وكفروا بأنعم الله غير ما بهم للأسوء – والعياذ بالله –.

عفوا أيها المتصوفون, عفوا ومعذرة أيها الصوفيون, إن الفترة التي إنطلقت فيها هذه الأفكار كانت رايات الإسلام تخفق فوق سقف العالم – جبال الهملايا – وعلى ربي القفقاس, وفي سهل بواتيه على بعد 35 ميلا من باريس, وفي مجاهل إفريقيا وكانت خيرات تلك البلاد تصب في قصبة الدولة, وقطب رحاها. كذلك كانت قصبة الدولة – بغداد – موئلا لكل مفكر, وساحة لكل فن, وسوقا لكل بضاعة وعلى رأسها جميعها سوق الفكر والأدب والفن. وإندفع أصحاب كل فن يبدعون وينتجون مما هم بحاجة إليه, ومما هم ليسوا بحاجة إليه, فكان الترف الفكري سيماء تلك الحقبة من الزمن. وبالرغم من إتساع رقعة المدينة وكثافة سكانها حيث بلغ عدد سكان بغداد ما يزيد على أربعة ملايين نسمة, وبلغ عدد النكايا – التي تقدم الطعام لمن يشاء وخصوصا إبن السبيل – فلم يكن أحد يحار بتدبير طعامه ومؤونته. فكان من البديهي أن تنشأ مثل هذه الطرق الصوفية. وكما سمي ذلك العصر بالعصر الذهبي. فلم يكن للمسلمين قضية سوى قضية نشر الإسلام – وكانت جيوش المسلمين ترفرف في كل إتجاه – أما اليوم فإن قضيتهم إيجاد الإسلام في واقع حياتهم هم, ناهيك عن حمله وسيادته للعالم. لذا – وبناء على هذا الواقع – قد يعذر من إعتزل الناس, وقد يعذر من جعل عمله رعاية غنم يسومها شعب الجبال, وقد يعذر الناس والشباب من حيث أن الحافز على العمل والكسب ضعيف جدا, السمو الروحي في أعلى مستوى له كردة فعل عنيفة لما يجري على الساحة من صراعات فكرية.

1

وقد قيل أن الكثير من الأحاديث الشريفة التي تناولت فضائل السور, ومنهم من يقول كلها موضوعة وذلك تجيشا للناس للإقبال على قراءة القرأن الكريم.

أما اليوم – والأمة تعاني المصيبة, وبين كل مصيبة مصيبة أخرى – فإن توالي الأحداث, وتعاقب الويلات, والمعاناة الدائمة في طلب الرزق والبحث عن الأمان. بالإضافة إلى أنظمة الكفر المفروضة على الناس وإبعاد صورة أنظمة الإسلام السياسية والإقتصادية, ومنع تدريسها حتى في كليات الشريعة إمعانا في التجهيل والتغريب. وإختلاط الرؤيا وعدم التمييز بين الأسود والأبيض, بين الحلال والحرام. فماذا على المؤمنين أن يفعلوا, لماذا يهربون من تحمل المسؤولية والقيام بما فرض الله عليهم؟ وهل يظن أن قيامه بالمستحبات والمندوبات يسقط عنه أثم القعود عن الواجبات.

ومن المعروف أن أمام المتصوفين هو محمد بن محمد أبو حامد الغزالي وقصة مناظرته مع سيدنا موسى عليه السلام ليلة المعراج معروفة. كما تذكرها الروايات, فقد روي أن سيدنا موسى عتب على سيدنا محمد ﷺ لقوله علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل, فقال رسول الله ﷺ إنها كلمة حق, فقال موسى عليه السلام وكيف؟ فدعى رسول الله ربه أن يبعث أحد علماء الأمة, فبعث الله تعالى الإمام الغزالي فقال له موسى عليه السلام: ما إسمك؟ فقال الإمام الغزالي: محمد بن محمد أبو حامد الغزالي, فقال له موسى عليه السلام: لقد سألتك عن إسمك ولم أسألك عن إسم أبيك وجدك, فقال الغزالي: أتذكر يا موسى حين سألك ربك عما في يمينك ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾[1] فقلت ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾[2] مع أن الله سبحانه وتعالى قد سألك عما في يمينك ولم يسألك عما تصنع بها, فقال له موسى عليه السلام: كنت أتلذذ بكلام الحق جل وعلا. قال الغزالي وأنا أتلذذ بكلام من كلم الحق جل وعلا. فقال رسولنا الكريم محمدﷺ : يا غزالي لقد أسأت الأدب مع موسى, وكان بيده قضيب, فضرب به بين كتفي الغزالي, ولما ولد الغزالي كان أثر القضيب بين كتفي الإمام رضوان الله عليه.

1
2

إن هذا الإمام رضي الله عنه في كتابه احياء علوم الدين, وضع كتابا خاصا سماه كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" احياء علوم الدين المجلد الثاني, طبع دار المعرفة بيروت في صفحة 306

نأخذ منه ما يلي:

الباب الأول في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضيلته والمذمة في إهماله وإضاعته. ويقيم الأدلة على ذلك من الأيات والأخبار والأثار.

أما الأيات فقوله تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ وقوله تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾[2] وقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾[3]

وذكر أكثر من عشر أيات تبين وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشرح ما تضمنته الأيات من مديح وثناء للقائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما بين الذم والتهديد والوعيد للمتقاعسين عن ذلك.

وأما الأخبار: فمنها ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها "أيها الناس أنكم تقرأون هذه الأية وتؤولونها على خلاف تؤويلها ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾[4] وإني سمعت رسول الله ﷺ﴿ ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده ﴾[5] وقال رسول الله ﷺ ﴿ لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم

1
2
3
4
5

ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم ﴾[1] وقال رسول الله ﷺ ﴿ ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لجي، وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجي ﴾[2]

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله هل من جهاد غير قتال المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم يا أبا بكر إن لله مجاهدين في الأرض أفضل من الشهداء أحياء مرزقين يمشون على الأرض يباهي الله بهم ملائكة السماء وتزين لهم الجنة كما تزينت أم سلمة لرسول الله ﷺ , فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله ومن هم؟ قال: الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والمحبون في الله والمبغضون في الله"

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قلت يارسول الله أي الشهداء أكرم على الله عز وجل؟ قال رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله..." أخرجه البزار وقال الحسن البصري رحمه الله: قال رسول الله ﷺ ﴿ أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك, فذلك الشهيد منزلته في الجنة بين حمزة وجعفر﴾[3] وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺيقول﴿ بئس القوم قوم لا يأمرون بالقسط وبئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ﴾[4] وقد ذكر في هذه المسألة أكثر من عشرة أحاديث كذلك.

وأما في الأثار فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا جائرا لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم, ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم, وتستنصرون فلا تنصرون, وتستغفرون فلا يغفر لكم.

وذكر رحمه الله في هذا الباب الكثير من الأثار,و خلص إلى القول "فقد ظهر بهذه الأدلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب, وأن فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به" نكتفي بهذا القدر مما جاء في هذا الباب مع أنه كثير جدا.

1
2
3
4

أما قوله "وإن فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به" إن القدرة على هذا الأمر متوفرة إما بالفعل أو بالقوة. أما توفرها بالفعل فإن في الأمة الأعداد الوفيرة القادرة على التغيير لو وضعت هذا الأمر في موضع التنبه وفي سلم الأولويات, وأما القدرة بالقوة فما من مسلم إلا وله القدرة على إعداد نفسه لمعرفة المعروف والمنكر, وفهم ما هو مطلوب قبل مباشرة العمل. وأرى هنا أنه من الضروري نقل ما ورد في الكتاب لما له من أهمية في هذا البحث, فكيف إذا علمنا أن هذا الوجوب قائم في ظل الدولة الإسلامية, وأن هذا الفرض مترتب على المسلمين مع أنهم في عزة وكرامة وراية الإسلام خفاقة, وقد دانت لها أمم الأرض قاطبة, فكيف بنا اليوم ونحن في هذا الواقع المرير, وهل هناك أمر بمعروف أكبر من الأمر بإيجاد الإسلام في واقع الحياة, وإستئناف الحياة الإسلامية؟ وهل هناك منكر أعظم من حكم الجاهلية؟ وهل هناك منكر أكبر من إتخاذ المجالس النيابية أربابا من دون الله؟ فاتقوا الله عباد الله.

الأكثرية الصامتة

تتفاوت النسب بين شعب وأخر, وبين أمة وأخرى من حيث الإهتمام بالشؤون العامة والقضايا السياسية. ومع ذلك تبقى نسبة العاملين في هذا الحقل, والمهتمين بهذه الأمور قليلة نسبيا في جميع الأمم والشعوب, فقد تبلغ ال عشرة في المائة عند الشعوب الراقية, وقد لا تصل إلى واحد في الألف, بل أقل من ذلك بكثير, إن هذه الظاهرة يمكن ردها إلى أمرين إثنين.

الأمر الأول إنها ظاهرة فطرية ناتجة عن غريزة البقاء, وما بطلق عليه عند البعض غريزة القطيع. فالإنسان من طبيعته أنه يعيش جماعات جماعات, قلت هذه الجماعة أو كثرت. ومن النادر جدا, بل إنه لم يذكر التاريخ أو الباحثين في مثل هذا الأمر أن الإنسان عاش بفرديته روحا من الزمن, ولهذا فإننا نقول أنها ظاهرة غريزية تنطبق على جميع الناس. وبناء على ذلك عاش الناس جماعات جماعات, وكل جماعة منها تنظم علاقاتها فيما بينها, وفيما بينها وبين غيرها من الجماعات, وهذا يتطلب أن يشرف على تنفيذ هذا التنظيم لهذه العلاقات فرد أو مجموعة أفراد لهم صلاحية ضبط الجماعة وتسييرها ضمن ما إتفق عليه من مفاهيم ومقاييس وقناعات. ويظهر هذا جليا في كافة المجتمعات البدائية منها والراقية. قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]

وأما الأمر الثاني فهو المفاهيم والمقاييس والقناعات التي حملتها هذه الجماعة أو تلك فإن كانت هذه المفاهيم المسيرة لسلوك الجماعة تنظر إلى الفرد بفرديته, وتنظر إلى المجتمع بأنه مجموعة من الأفراد تربطهم المصالح المشتركة, وقد جمعتها الظروف للعيش المشترك ضمن هذا الكيان السياسي. فاستأجرت لها رئيسا وحكومة لتنفيذ ما اتفق عليه من دستور وقوانين أي لتنفيذ ما اتفق عليه من مفاهيم ومقاييس وقناعات. وإكتفت الجماعة بهؤلاء الأجراء لتنفيذ القوانين. ويظهر في هذه المجموعة من الناس أناس ينافسون هذه الجهة المستأجرة للتنفيذ, وتتطلع نفوس للوصول إلى هذه المراكز, وتتحرك مشاعر المصلحة لتدفع بأصحابها للمنافسة وهكذا. من مثل هذه الأمور تظهر الجماعات السياسية في المجتمعات التي نظرت للمجتمع بأنه

1

مكون من أفراد, ومن مثلها من المجتمعات التي قالت بإعطاء الفرد حريته, فما الذي يربطه بغيره حتى تتحرك مشاعره الشؤون العامة والقضايا السياسية. والمجتمع الذي يضع أحكامه ومعالجاته لمشاكل المجتمع من زاوية مشكلة الفرد فكيف يمكن أن يوجد عند أمثال هؤلاء جميعا أحاسيس عامة وقضايا سياسية. ولهذا فإن نسبة المهتمين بالقضايا العامة ستكون قليلة حتما, أو على الأقل فإنها تختلف تماما عن جماعة أو مجتمع وجد على مفاهيم مقاييس وقناعات مغايرة تماما عن تلك التي سلفت.

أين من ذلك مجتمع يقوم على المفاهيم والمقاييس والقناعات التالية:

1. "من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم"[1] دعوة للجميع للإهتمام العام.
2. "أنت على ثغرة من ثغور الإسلام فلا يؤتين من قبلك"[2] حراسة عامة من الجميع.
3. "ما أفلح أهل عرصة ناموا وبينهم جائع وهم يعلمون"[3] رعاية شاملة للجميع.
4. "إن قوما إستهموا سفينة فإخذ كل منهم مكانه, فإخذ أحدهم فأسا وبدأ ينقر في موضعه, فقالوا له ما تصنع, قال إنه مكاني أصنع فيه ما أشاء, فإن هم أخذوا على يده نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا "[4]
5. "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده, فإن لم يستطع فبلسانه, فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"[5]
6. "من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرمات الله, ناكثا لعهود الله حاكما في عباد الله بالإثم والعدوان ولم يغير عليه بقول أو فعل كان على الله أن يدخله مدخله"[6]
7. "المؤمنون والمسلمون أمة من دون الناس"[7]
8. "ذمة المؤمنين واحدة, يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم"[8]

1
2
3
4
5
6
7
8

إن مجتمعا يقوم على مثل هذه المفاهيم والمقاييس والقناعات لا بد وأن تكون نسبة المهتمين بالقضايا السياسية والشؤون العامة نسبة عالية تفوق كل ما سواها من مجتمعات في العالم.

إن عقيدتنا التي يقوم عليها مجتمعنا, والتي يتربى عليها أبناءنا هي التي جاءت بهذه المفاهيم والمقاييس والقناعات, والتي تجعل كل مسلم عينا ساهرة على مجتمعه ورقيبا لساسته. وهي التي جعلت الحاكم نائبا عن الأمة وليس أجيرا عندها فلا مطمع من تولي ذلك المنصب. أما الحافز لوجود جمهرة من السياسيين فهي هذه المفاهيم والمقاييس والقناعات.

إلا أن المؤلم أن نجد أن نسبة العاملين في المجال السياسي والداعين إلى التكتل السياسي أو الكتبة في الفكر السياسي ما زالت نسبتهم متدنية جدا وذلك للظروف التي تمر بها أمتنا, والواقع الذي تعيشه والظلم الذي ترزح تحته. ويمكن أن نعزوا ذلك للأسباب التالية:

1. **إنفصال المجال السياسي عن عقيدة الأمة, فقد فرض على الأمة نظام سياسي لا يمت إلى عقيدتها بصلة.**
2. **سياسة هذا النظام في توجيه الناس وتثقيفهم وإبعادهم عن التفكير السياسي من منطلق عقيدتهم وإيمانهم.**
3. **تصوير السياسة بأنها خداع ودجل وتضليل.**
4. **سياسة القمع والإضطهاد.**
5. **سياسة التجويع بحيث يمسي ويصبح الفرد مفكر بقوت يومه.**

إن هذه الأمور ومثلها أوجدت خمورا في المفكرين السياسيين, والداعين إلى الأفكار السياسية. ومع ذلك فلا عذر للمسلم بالقعود عن الدعوة لفكر سياسي والعمل لتغيير الواقع السيء الذي يعيش فيه, فإن العقيدة التي أمن بها, والأفكار التي يحملها توجب عليه أن يقوم بما يستطيع من أعمال في المجال السياسي, هذا من الناحية الشرعية.

إلا أن هناك جانب أخر وددت مخاطبة أبناء هذه الأمة به, فبعد أن خاطبت قواهم الفكرية بالأحكام الشرعية, أريد أن أخاطب قواهم العقلية من منطلق عاطفي, أحرك به

أحاسيسهم, وأثير به مشاعرهم, لعلمي أن العزة والكرامة والأباء قيم تجري في عروقهم مجرى الدم. فإين هم الأن من هذا الواقع الذي أريد أبينه.

حين تنظر إلى ما يسمى بالأكثرية الصامتة نرى أن القسم الأكبر منها لا تهمه القضايا السياسية ولا الشؤون العامة بشيء أبدا, فتفكيره وعمله ال يتعدى شؤونه الخاصة, ومصالحه الذاتية وقد خالف ما أمره به رسول الله ﷺ حيث قال ﴿ لا يكن أحدكم إمعة يقول: أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وأن أساؤا أسأت ﴾[1] إن هذا القسم الأكبر قد تخطى معنى الامعة إلى حد الأنانية المطلقة فهو لا يفكر بإحسان الناس أو إساءتهم إن لم تكن هذه الإساءة أو هذا الإحسان متعلقا بمصلحته الذاتية ليس غير. حتى لو حاولنا إثارته ودفعه إلى الحديث, فإن تبلد إحساسه وجمود تفكيره, وإنطواءه على نفسه يجعله كما وصفه رب العالمين﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[2] نعم إن هذه الفئة من الأكثرية الصامتة من الممكن أن ينطبق عليها وصف غريزة القطيع. إنهم فعلا كالأنعام لا يدرون بأي شعب يسيمون, ولا في أي عدوة منه يرعون. فالمهم توفر الكلاء. وما شأنهم بالسياسة, وما علاقتهم بالنظام المسير لحياتهم, إنهم لا رأي لهم فهم أدوات تتحرك كما يريد صاحبها. هذا هو القسم الأكبر من الأكثرية الصامتة. وأما القسم الثاني – ولست بقادر على الحكم عليه أهو أرقى منزلة من سالفه أم دونه – فهو الذي يجابهني حين أدعوه, يجابهني بالقول, وما الذي فعلته أنت؟ وقبل أن أرد عليه, تنهال علي تعليقاته اللاذعة, قل لي ما الذي فعلتموه؟ أليست الأحزاب هي التي جرت الويلات والمصائب على هذه الأمة؟ أليست السياسة هي أسباب البلاء, أليست...أليست حتى أقول بنفسي ليته سكت.

فإين أنت من هؤلاء أيها الإنسان المفاخر بإنسانيتك؟ أين أنت من ذلك أيه الرجل المعتز بكرامتك وعزتك؟ فهل ترضى أن تكون شاة في القطيع؟ أحقا أنك أصبحت لا يهمك إلا إمتلاء معدتك؟

1
2

أما أن أنا فإنني أربأ بك يا أخي أن تهوى إلى هذا الدرك الأسفل فأنت ما زلت بنظري أكرم المخلوقات. فقد كرمك الله ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[1] وخلقك في أحسن تقويم ﴿ لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ﴾[2] وأربأ بك أن تهوى وترد إلى أسفل سافلين فأنت من الذين رفعهم الله بالإيمان وزينهم بالأعمال الصالحة.

لو جازت الأعذار كان من الممكن أن تعذر هذه الأكثرية الصامتة لكثرة ما قاست مأسي, إلا أن المأسي والمصائب وسوء الأحوال تؤدي إلى تحرك جماهيري واسع لأنه كما يقال الضغط يولد الإنفجار, هذا إن لم يجعل لهذا الضغط متنفسا. ولهذا فإن القائمين على شؤون الجماعة يراقبون الوضع بدقة متناهية حتى إذا بلغ الضغط الخط الأحمر أوجدوا له متنفسا. فأفسحوا المجال لقيام هذه الأكثرية الصامتة بمظاهرة أو إضراب, أو غير ذلك مما يجري عادة بين أونة وأخرى.

وقد يكون هذا المتنفس لأمور تافهة جدا, كالمطالبة بمنع الغلاء, أو زيادة الأجور أو مناسبة وعد بلفور أو ذكرى 17 أيار أو مثل ذلك.

1
2

الدعوة السلفية

هناك فئة أو فئات تطلق على نفسها إسم السلفيين, أو أنصار السنة المحمدية أو دعوة أهل الحديث. وتقوم هذه الفئات على فهم خاص بها مدعية أنه الفرقة الناجية فقط. وذلك من حديث رسول الله ﷺ ﴿ افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة, كلها في النار إلا واحدة, وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة, وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة.وفي لفظ : على ثلاث وسبعين ملة. وفي رواية : قالوا : يا رسول الله, من الفرقة الناجية؟ قال : من كان على مثل ما أنا عليه اليوم ,وأصحابي. وفي رواية : قال : هي الجماعة, يد الله على الجماعة ﴾[1] **لذا فهم يرون أنهم هم الفرقة الناجية لأنها هي الفئة التي إستوفت شروط النجاة, وذلك لأنها لم تقف فقط عند الكتاب والسنة بل تمسكت بالعصمة – كما تقول – التي هي سبيل النجاة, وتعني بالعصمة إتباع الصحابة والتابعين وتابيعيهم بإحسان لقول رسول الله ﷺ** ﴿ خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ﴾[2] **والذين قال فيهم الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه** ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[3] **ولهذا فهم يرون وجوب الإقتداء بالسلف الصالح وأن هذا الأمر ثابت بالكتاب والسنة. أما الكتاب فقوله تعالى** ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً ﴾[4] **وأما السنة فقد روى الإمام أحمد في مسنده والترمذي في سننه عن العرياض بن سارية قال "وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون. فقلنا أوصنا يا رسول الله, قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن ولي عليكم عبد حبشي, وإنه من يعش منكم, فإنه سيرى إختلافا كثيرا, عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين الهادين المهتدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ, وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة, وكل ضلالة في النار". وأنهم يرون أنه لا يجوز التقليد المذهبي, والتدين بالتقليد فهم يقولون أن الجماعات الأخرى, قد ران عليها الجمود المذهبي, ران عليها الجمود على**

1
2
3
4

التقليد, ران على قلوبها التدين بالتقليد. وهذا يعني أن التقليد, والتقيد بمذهب من المذاهب الشرعية باطل لأنه تقليد, لأن السلف الصالح لم ينهج منهج التقليد ولهذا فإن الفئة التي تتبع في دعوتها مذهبا معينا, والإنسان الذي يلتزم في حياته مذهبا معينا قد ران على قلبه فهو ليس من الفرقة الناجية.

إنه لا يكفي أن يلتزم الإنسان الكتاب والسنة, ولا يجوز لفئة أو جماعة أن تلتزم الكتاب والسنة, وما يقوده إليها فهمها للكتاب والسنة. فإن فعلت فهي إذن في النار, وليست من الفرقة الناجية, فالفرقة الناجية هي التي تمسكت بالعصمة وهي إتباع السلف الصالح. فهم الذين نقلوا لنا الكتاب والسنة, وهم الذين فهموا من رسول الله بيانه للكتاب. فإتباع السلف الصالح واجب كإتباع الكتاب والسنة سواء بسواء, بل إن إتباع الكتاب والسنة لا ينجي, بل سيصلى صاحبه نار جهنم وساءت مصيرا, إن لم يتبع سيرة السلف الصالح.

ومن هنا كانت دعوتهم تقوم على أمرين:

الأمر الأول رفض التقليد, ونبذ الجمود على مذهب واحد.

الأمر الثاني الإلتزام بسيرة السلف الصالح, والمقصود بالسلف الصالح القرون الثلاثة الأولى فهي خير القرون.

إنني لا أريد أن أناقش الفكرة الأساسية التي تقوم عليها هذه الدعوة, ولا ما تقول به من وضع مخالفيها في جهنم وساءت مصيرا, ولا من حيث طبيعة تكوين هذا الإنسان والتفاوت في الفهم بين بني البشر. وجواز أن يسأل من لا يعرف من يعرف ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[1] أولا أريد أن أسأل إن كان رجال وشباب هذه الفئة من الناس كلهم مجتهون أو أنهم مرجحون, أسأل الله تعالى أن يكونوا كذلك.

بل ما أريد أن أذكرهم به أمرين.

1

- **الأمر الأول وهو ما ورد على لسان أحد العلماء بتكفير الفئات المخالفة لهم, أو على الأقل يصليهم جهنم وساءت مصيرا, فليتق الله أمثال هذا العالم. فتكفير من يلتزم الكتاب والسنة وإن خالفهم بمسألة فقهية أو مسألة أصولية, أو مسألة فكرية لا يجوز أن ينعت بالكفر, أو أنه ليس من الفرقة الناجية.**
- **أم الأمر الثاني وهو بيت القصيد, يا من ترون أنكم الفرقة الناجية, إن المسألة المبحوث عنها هي وجود الإسلام في واقع الحياة, أو لنقل عودة الإسلام لواقع الحياة. فماذا أعددتم لذلك؟ أم أنكم ترون أن الإسلام موجود في الحياة فرايته خفاقة, ودولته مرهوبة الجانب, جيوش الفتح تجوب العالم طولا وعرضا تحمل النور والهدى للعالم؟**

إن المسألة ليست مسألة حمل الدعوة لمجرد حمل الدعوة والقيام بهذا الواجب من قوله تعالى﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[1] **أو التقرب إليه تعالى لقوله ﴿** وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[2] **وليست المسألة هي الدعوة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, كما أن المسألة ليست الإنتظام في جماعة للقيام بأعمال الخير والبر, إنما المسألة هي جماع كل ذلك فحمل الدعوة الإسلامية فرض ولكنه لا يسقط فرضيته عن حمله في جماعة, وحمله في جماعة لا يسقط فرض الدعوة لإستئناف الحياة الإسلامية. فالفرض القائم الأن في حق كل مسلم هو العمل لإقامة دولة الإسلام ورفع راية القرأن, والحكم بما أنزل الرحمن على عبده محمد بن عبد الله نبي الرحمة ﷺ هذه هي المسألة. فهل أنها من ضمن سبيل المؤمنين, وهل قام بها السلف الصالح رضوان الله عليهم فبذلوا فيها الغالي والنفيس, ولم تأخذهم فيها لومة لائم. وهل تواطأ سلفنا الصالح مع حاكم ظالم أو إمام جائر, وهل سكت سلفنا الصالح على كفر بواح, أو فسق ظاهر, أليسوا هم من سألهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال "**من رأى منكم في إعوجاجا فليقومه فقالوا والله لو رأينا فيك إعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا "[3] **أليس سلفنا الصالح هم الذين حاربوا أهل الردة, هم الذين حاربوا من حاول التفريق بين الصلاة والزكاة,**

1
2
3

أليسوا هم من خرج جهادا في سبيل الله, أليست قبور بعضهم تحت أسوار القسطنطينية, أليسوا هم من دون لنا ما يساعدنا على فهم الكتاب والسنة. ألم تكن طريقتهم في الحياة إما جهادا بالسيف وإما جهادا بالكلمة والأمر بالمعروف ومحاسبة الحكام, وإما تدوين ما الأمة بحاجة إليه من فكر أو فقه أو علوم شرعية فجزاهم الله عن المسلمين كل خير, ومن يسير على سيرتهم كيف يرضى أن يعيش في ظل أحكام الكفر, أو أن يرى أحكام الإسلام معطلة. أو أن يترك الأمة لا تعرف من نظم حياتها شيئا بل لا تعرف إن كان في الإسلام نظم أم لا. إن الأمة أيها الأحبة المؤمنون لا تعرف شيئا عن نظام الحكم فيها فلا تفرق بين الملكية والخلافة, ولا بين الجمهورية والإمامة, ولا تفرق أبدا بين مجلس النواب ومجلس الشورى. لا تدري الأمة أن مجلس النواب إتخذ ربا جديدا يضع للناس تشريعاتهم, ويسن قوانينهم, وما عليهم إلا عبادته, فعبادته طاعته فيما سن من قوانين وما وضع من تشريعات, لحديث عدي بن حاتم, حيث دخل على رسول الله ﷺ وكان يتلو قوله تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] فقال عدي بن حاتم لكنهم لم يعبدوهم فقال رسول الله ﷺ ﴿ ما عبدوهم ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم ﴾[2] فهل تفضلتم ببيان للأمة بتبين فيه مصدر التشريع في الإسلام.

إن الأمة أيها الأخوة لم تفرق بين النظام الملكي ونظام الحكم في الإسلام فهل تكرمتم على الأمة بتوضيح هذا الأمر على الأقل.

وهل علمتم أيها السادة أن الأمة لا تعرف إن كان في الإسلام نظام إقتصادي فقصارى فهمها أن النظام الإقتصادي في الإسلام هو الزكاة. فهل تفضلتم بتفهيم الأمة أن النظام الإقتصادي في الإسلام ليس موجودا في واقع حياتنا, فالملكية العامة فيه أصبحت ملكية خاصة لصاحب الأمر نعم إن الناس لا يتصرفون بشؤونهم الخاصة في حياتهم الإقتصادية إلا بناء على مايعرفون من حلال وحرام. ولكن ما يتعلق بالحياة العامة من ملكية دولة وملكية عامة, وجمع الثروة وتوزيعها وإعالة المحتاج وتأمين المأكل والملبس والمسكن للناس. كل هذه الأمور العامة

1
2

لا يعرف الناس فيها إلا النذر اليسير, فإن كنتم أنتم على علم بهذه الأمور فلم لا تطرح للناس حتى يكونوا على بينة من إسلامهم وهداهم.

أخيروا الأمة عن الدستور الذي وضعه رسول الله ﷺوسار عليه السلف الصالح, فإن أخبرتموها فسيروا أمامها للوصول إلى وضعه موضع التنفيذ, هذه هي المسألة, مسألة عودة الإسلام للحياة.

رؤيا واضحة لا نريد بها تقليدا لما يجب أن يكون عليه المسلمون.

رؤيا واضحة لا نريد بها تقليدا للهدف المنشود أي الدولة الإسلامية بدستورها وقوانينها.

رؤيا واضحة لا نريد بها تقليدا لكيفية الوصول إلى هذا الهدف.

و الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

صحوة بطيئة

خلف لنا عهد الإنحطاط أفكارا إنهزامية مقيتة, جعلت الأمة تستسلم للخضوع وتستمرئ الخنوع, وترضى بما هي فيه من إنحطاط, وما تعانيه من ظلم وجور وتعسف وباتت تنتظر الفرج الغيبي, وتستبشر كلما إزداد الفسق والفجور, وكلما تعاظم الظلم والجور. فهي تفكر من قاعدة عقدية, من قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1] وأخذت تردد "ما بعد الضيق إلا الفرج" "إشتدي أزمة تنفرجي", وتتكمس بعض النصوص التي تتحدث عن المستقبل, وكيف أن الله سبحانه وتعالى يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد هذا الدين, أو أن الله سبحانه وتعالى سيرسل لهذه الأمة من ينقذها مما هي فيه, ويعيد لها عزتها ومجدها. فمن قائل يقول انه مطلق إنسان مؤمن يبعثه الله لينقذ الأمة ويرفع عنها الضيم, ويأخذ بيدها إلى شاطئ السلامة, واخرون يرون وبناء على نصوص يؤمنون بها أن هذا الإنسان ليس مطلق إنسان فهو رجل من أل محمد ﷺ يحمل إسم النبي ﷺ ويتكنى بكنيته, وفريق ثالث يرى أنه ليس مطلق رجل, ولا مطلق إنسان من أل محمد ﷺ, بل هو إنسان معين, إنه محمد الهادي بن الحسن العسكري, وهو الأمام الثاني عشر من أئمة الجعفرية الإثنا عشرية. ولد سنة **252** وغاب الغيبة الصغرى بوفاة أبيه سنة **257** وبقي على إتصال بالناس من خلال أربعة أشخاص؟ (ولد **255** / توفي **260**).

وفي سنة **329** وجدت ورقة كتب فيها أن من إدعى أنه رأني أو إلتقى بي فإنه كذاب, كانت الغيبة الكبرى. وهؤلاء المؤمنون بهذه العقيدة بانتظار ظهور المهدي لإنقاذ هذه الأمة, وكان مما يعتقدون أن هذا المنقذ لا يظهر إلا إذا ملئت الأرض ظلما وجورا, كي يظهر ويملأها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا.

وقد بدأت هذه الأفكار تتلاشى تدريجيا أو أنها تخلت عن مركز الصدارة, وكمنت في الخلفية الفكرية, فمنذ العقد الثالث من هذا القرن بدأت بعض الحركات تسعى للتغيير ورفضت الإستسلام للقدرية الغيبية, إلا أنها ما زالت موجودة عند قطاع واسع من الناس, أو أدخل عليها بعض التعديل عند بعضهم, وقد تعللوا بالقول كما تكونوا يولى عليكم, ولهذا فقد شغلوا بأنفسهم

1

بحسب تصورهم. ولسان حالهم يقول نحن علينا أن نصلح أنفسنا وأهل بيتنا. والله سبحانه وتعالى يتولى التغيير, بيده الأمر وإليه راجعون, وإنضم لمثل هذه الفئات عشرات الألاف من الشباب بل مئات الألاف, يبحثون عن دقائق الأمور في السنة المطهرة كالسواك والمضع واللباس والعمامة وشكلها, واللحية وكيفية المشي إلى غير ذلك من الأفعال التي كان يقوم بها رسول الله ﷺ. الأفعال الجبلية وغير الجبلية, حتى في كيفية جلوسه عند قضاء الحاجة أو دخوله للخلاء. أما أن يتطلع إلى ما يجب أن يكون عليه حال الإسلام والمسلمين في هذا الحياة الدنيا فذاك موكول أمره إلى الله سبحانه وتعالى, بيده الخير وهو على كل شيء قدير"لعنت مرة بيغن رئيس وزراء إسرائيل, فاستشاط صاحبي غضبا وقال لا يجوزأن تلعن أحدا إلا إبليس, وقال: وما يدريك لعله قد يعتنق الإسلام في الوقت الذي تلعنه فتكون قد لعنت مسلم"

وإن كنت لست بصدد مناقشة عقائد القوم وأحكامهم ماداموا يعتقدونها بناء على أدلة أمنوا بها, إلا أنه أرى نفسي مضطرا إلى لفت أنظار القوم إلى بعض الأمور التي تعتبر جزءا أساسيا في القضية التي نسعى إليها جميعا باعتبارها قضية المسلمين جميعا وهي القضية التي يجب أن ينظر إليها كقضية مصيرية, يترتب عليها الوجود أو الفناء, ولهذا فإنني أطرح ما عندي حول هذا الأمر وذلك من باب النصيحة فقد قال رسول الله ﷺ﴿ الدين النصيحة, قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ﴾[1] ولهذا أجد لزاما علي – ما دمت بصدد بيان الهدف وكيفية الوصول إليه, والذي يسعى إليه جميع العاملين على إيجاد الإسلام في واقع الحياة, والعاملين لإستعادة عزة المسلمين ومجدهم – أجد لزاما علي أن أبين ما أراه واجبا علي بيانه.

إن النقلة الجبارة التي إنتقل إليها فكر إنتظار المهدي إلى وجوب تطبيق الإسلام والحكم بنا أنزل الله سبحانه وتعالى وعدم الإنتظار في هذه المسألة فما أوجبه الله على المسلمين منذ بعثة محمد ﷺ , يبقى واجبا, فلا يتغير بتغير زمن, ولا بغياب شخص, ولهذا كانت فكرة "ولاية الفقيه" نقلة نوعية جبارة, بالرغم من عدم أدراك أبعادها, وتفهم معانيها, وكثرة من كتب في تفسيرها وإيضاحها, وبالرغم من معارضة الكثرة الكاثرة لهذه الفكرة بين المسلمين سنة وشيعة, عاملين أو

1

قاعدين, نقلة وضعت حدا لموضوع إنتظار المهدي, وقضت نهائيا على الفكرة القائلة بوجوب إنتشار الفساد, وسيادة الظلم والجور, كذلك استبعدت فكرة عدم تطبيق الإسلام إلا من قبل إمام معصوم. ولو أن ما زال هناك بعض التأويلات للقائلين بولاية الفقيه, محدودوا صلاحيات الولي الفقيه, وقالوا أن هناك صلاحيات لا يجوز أن يمارسها إلا الولي المعصوم, ومن مثل هذه التأويلات أو الأراء المضادة لها أجد لزاما أن أتطرق لهذه المسألة لما لها من أثر على الهدف الأساسي, قضية الإسلام والمسلمين.

توفي الإمام الحسن العسكري سنة 257 هجرية, وكانت الغيبة الصغرى, ثم كانت الغيبة الكبرى سنة 329 هجرية. فهل على الزمن أن يتوقف عند هذا التاريخ أم أن على الإسلام أن ينتهي أم أن على المسلمين أن يرتضوا باحكام الكفر. فعدم وجود المعصوم يقضي بعدم الحكم بالإسلام بزعمهم, لأنها مسؤولية الإمام المعصوم, أو أن الإمام المعصوم سيضع لها برنامجا خاصا منذ إنتهاء العصمة وإلى يوم الدين. إذ أن الحياة لم تتوقف عند سنة 329 هجرية والإسلام لم ترفع احكامه عند هذا التاريخ. أما الإمام التسخيري فإنه يرى وجوب القيام بالأمر دون إنتظار عودة المعصوم فحلال محمد حلال إلى يوم القيامة, وحرامه حرام إلى يوم القيامة. أما القول بأن هذا الدين لا يقوم به, ولا بيانه إلا من كان معصوما ومن أهل البيت, وقد تتابع المعصومون يخير السلف عن الخلف حتى الإمام الثاني عشر. وذلك فهما لما فعله رسول الله ﷺ حين نزلت سورة التوبة, فحملها رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ليلحق بها الحجيج ليبلغهم إياها, مع أن أمير الحج في حينه كان أبو بكر الصديق, فلم يكلف الرسول ﷺ أمير الحج بالبلاغ, وقال لا يقوم بهذا الأمر إلا رجل مني.

وقد اتخذت هذه الحادثة دليلا على أن من يتولى أمر هذا الدين لا بد وأن يكون من أهل البيت, وأن يكون معصوما حتى لا يقع في الخطأ عند بيان أحكام الإسلام أو شرح ما جاء به رسول الله ﷺ.

أقول: انه من يكلف بتبليغ وشرح النصوص المنزلة من رب العالمين أيات أو أحاديث, هو أحد اثنين أما أن يكون حاكما فتنفيذه للأحكام هو شرح لها, كما فعل الإمام علي كرم الله

وجهه, فقد كانت فترة حكمه جميعها شرحا لأحكام البغاة, ومسؤولية الحاكم تجاههم, بيانا لأمور لم تكن موجودة في عهد من سبقوه من الخلفاء. كما أن حياته ف ظل حكم الخلفاء السابقين له كانت كذلك تشريعا وبيانا حسب ما فهمه من رسول الله ﷺ, لذا نقول بأن سيرته رضوان الله عليه كانت تشريعا وبيانا للكتاب والسنة, بالإضافة إلى كتاب نهج البلاغة, وهو مجموعة خطب وأقوال تحدث بها. أو أن يكون فقيها لم يتمكن من الوصول للحكم وتنفيذ الأحكام كما تعلمها من رسول الله, فقام بتدوين وتدريس ما علم من فكر وفقه, وبيان أحكام الله في الأمور المستجدة, كما فعل الإمام جعفر بن محمد رضي الله عليهما.

ثم جاء من بعد الإمام على ابنه الحسن رضوان الله عليهما, الذي قال فيه رسول الله ﷺ إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين نظر فيما حوله فرأى ببصيرته وجوب وحدة المسلمين فبايع معاوية بن ابي سفيان مع إيمانه بأنه هو أدنى منه بهذا الأمر إلا أن الواقع الذي يعيش فيه, وإنفضاض الناس عنه جعله يبايع معاوية. لم يقم بعدها بنشاط سياسي يذكر ولم يعمر طويلا بعد والده رحمهما الله تعالى ورضي عنهما, فمن حيث سيرته لم يقم ببيان الكتاب – القرأن – ولم يشرح السنة المطهرة من حيث أنه لم يستسلم الحكم, لتكن تصرفاته بيانا, كما أنه لم يؤلف لنا كتابا نقرأه بل ولم ينقل عنه علماء الطائفة شيء, ولم يكتب عنه إلا النزر اليسير, مما ال يصح أن يقال إن عصمته سلام الله عليه كانت لبيان هذه الأمور.

وجاء من بعده اخوه الإمام الحسين فعاش في ظل خلافة معاوية ما يقرب من عشرين سنة لم ينقل عنه شرحا لما في كتاب الله أو توضيحا لم في سيرة رسول الله ﷺ ولم يبد رأيا في المسائل المستجدة في حينه, أو على الأقل لم ينقل عنه شيء من ذلك, بل ولم ينقل عنه أية حادثة إعتراض على معاوية بن إبي سفيان إلا اللهم موقفه منه حين طلب البيعة لأبنه يزيد في حياته, فقد وقف العديد من أبناء الصحابة موقف الرفض لهذه المسألة, فهم عبدالله بن عباس, وعبدالله بن عمر و بن الزبير وغيرهم, فلما توفي معاوية واستلم ابنه يزيد الحكم من بعده رفض مبايعة يزيد, مؤمنا بأنه أولى بهذا الأمر من يزيد وغيره وسارع للعمل على هذا الأساس وأرسل ابن عمه إلى العراق مسلم بن عقيل, وكان ما كان من ثورة, والفاجعة العظمى التي أصابت المسلمين في كربلاء. وقد يرد سؤالا أو تساؤل لم لم يثر الحسين على معاوية, وثار على يزيد, مع أنه لا

يختلف عنه كثيرا, ولم يكن قد إستلم الحكم بعد ليأخذ عليه مخالفته ما, بينما والده معاوية قد إرتكب مخالفات شرعية كثيرة أثناء فترة حكمه, مثل أخذه البيعة لولده في حياته, هذا الشرخ العظيم الذي أحدثه في الإسلام, بل هذه السنة السيئة التي إستنها في إختيار الخليفة وتحويل الشورى إلى التعيين أو ولاية العهد بتعبير أخر؟

أقول مجيبا على هذا السؤال إن معاوية بن أبي سفيان حين بايعه الناس بعد إستشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب, وبايعه الحسن بن علي رضوان الله عليه, أصبحت خلافته شرعية, وأصبح ولي أمر المسلمين تجب طاعته, ولا يجوز الخروج عليه إلا إن أظهر كفرا بواحا, وكان من البديهي أن يحترم الحسين عليه السلام رأي أخيه في مبايعة معاوية, ويلزم نفسه بها, ويلزم نفسه بالحكم الشرعي المترتب على هذه البيعة, وعدم الخروج عليه إلا بإظهار الكفر البواح. ولما لم يظهر معاوية الكفر البواح كان الخروج عليه حراما, وحاشا للحسين وأمثاله أن يرتكبوا حراما. ولهذا لم يخرج الحسين عليه السلام على معاوية بن أبي سفيان. أما بالنسبة ليزيد فكان الأمر مختلفا تماما. فيزيد بن معاوية لم يجمع المسلمون على مبايعته, ولم تكن البيعة في حياة والده ملزمة لهم, ولم تبايعه الصفوة الطيبة من المسلمين من أبناء الصحابة, بل ولا الحجاز بكامله ولا العراق ولا مصر ولهذا لم تكن بيعته في أعناق الناس, ولم يكونوا ملزمين بالطاعة له. ولهذا تحرك الحسين عليه السلام لأخذها له. وأرسل بن عمه مسلم بن عقيل إلى العراق, وجاء به رسل العراق ورسائلهم يبايعونه على السمع والطاعة ويطلبون منه القدوم إلى العراق. فخرج وكان ما كان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وخلفه عليه السلام الإمام علي بن الحسين – زين العابدين – فنشط في المجال السياسي وإستطاع أن يجمع الناس من حوله ويكسب ثقتهم, وما حادثة الطواف بالبيت الحرام وإفساح المجال له, وإستهجان الخليفة لهذا الأمر, والقصيدة التي ألقاها الفرزدق بين يدي الخليفة حين قال له إن كنت لا تعرفه فأنا أعرفه

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيـت

يعرفه والحـل والحـرم

هذا إبن خير عبــاد الله كلـهم هذا التقـي
النقـي الطـاهر العلـم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهلـه بجده
أنبيـــاء الله قـد ختمـوا

وليس قولك من هذا بضائـره العرب تعرف
من أنكرت والعجـم

لم تكن هذه القصيدة مرتجلة كما يبدو, ولم يكن إرفضاض الحجيج من حول الكعبة وفسح المجال لزين العابدين ليطوف دون مزاحم مصادفة وإنما كان عملا سياسيا منظما مما أزعج الخليفة وأرعبه.

إلا أن الإمام لم يستلم الحكم, ولم يترك لنا فقيها مدونا نعود إليه, أو شرحا وبيانا لما جاء به محمد ﷺ وإن كنا قد إستفدنا شيئا من سيرته – سلام الله عليه – فهو نشاطه السياسي, والصحيفة السجادية التي هي مجموعة أدعية وإبتهالات إلى الله سبحانه وتعالى, وأظن أن نشاطه السياسي هذا جعل الأمويين يقربون إبنه محمد رضوان الله عليه.

وخلفه إبنه محمد رضوان الله عليه – الباقر– كذلك لم يحالفه الحظ لإستلام الحكم, كما أن نشاطه السياسي أشغله عن الفقه والفكر والتدوين. ولهذا لم يترك لنا شيئا مما كانت العصمة بسببه –كما يعتقد القوم – أي من الشرح والبيان لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وتشتد الدعوة لأبناء علي سلام الله عليهم أجمعين, مما جعل العباسيين يلبسون ثوبها ويخفون غايتهم, حيث أن الناس جميعا كانوا يدينون بالولاء لأل علي, لصلتهم برسول الله ﷺ وقد فوجئ الإمام جعفر الصادق عليه السلام بالثورة, ولم يكن قد إعد نفسه لها, وزحف أبو مسلم الخرساني على الشام. وكانت المعركة الفاصلة التي أنهت الحكم الأموي وأزالته من الوجود بعد حكم دام حوالي ثمانين سنة, كما فوجئ الإمام جعفر بالدعوة إلى بني العباس فعرف أن الأمر دبر بليل. وإستلم الحكم أبو العباس السفاح فلما قضى وكان هناك شيئ من البلبلة أراد محمد

النفس الزكية الخلافة لنفسه – محمد النفس الزكية هو محمد بن الحسين بن علي بن أبي طالب – إلا أنه فشل إذ لم يجد تأييدا ولا من إبن عمه جعفر الصادق فقد قال لوالده إن الخلافة ليست لولدك بل الخلافة لصاحب الرداء الأخضر يعني أبا جعفر المنصور[1]

ويأتي إمام الطائفة والذي سميت بإسمه – الشيعة الجعفرية الإمامية الإثنا عشرية – إستاذ الفقهاء, تتلمذ على يديه الألاف من مشاهير الفقهاء, من أمثال أبي حنيفة النعمان بن ثابت ورث العلم عن أبيه الإمام محمد الباقر بل ورث العلم والمكانة عن جده علي بن أبي طالب من جهة الأب وعن جده أبي بكر من جهة الأم رضوان الله عليهم أجمعين.

يقف علماء الطائفة عند حد النص الوارد عنه, فهو نص ورد عن معصوم – حسب رأيهم – فلا يصار إلى تصويبه أو تخطيئه, بل يسلم به تسليما كالنص الوارد عن جده رسول الله ﷺ فإن كان ولا بد من النظر في الحديث الوارد عنه فإنما يكون ذلك للسند فقط. فإذا صح سنده فالتسليم المطلق لما في المتن. فمنه يؤخذ, وإليه تنتهي سلسلة السند ومن الطريف في هذا أن الإمام الكليني – صاحب صحيح الكافي – وأصول الكافي والمتوفي سنة 328 هجرية أي قبل بدء الغيبة الكبرى بسنة واحدة, أي أنه كان موجودا بوجود المعصوم. لم يرو حديثا واحدا إلا ما ندر – والنادر كما يقال لا حكم له – لم يرو حديثا واحدا عن طريق الغائب عيبته الصغرى عن طريق نوابه أو أحدهم, ولم يرو كذلك عن الإمام حسن العسكري بالرغم من قرب عهده به أو معايشته. كما أنه لم يرو عن الإمام محمد الجواد أو الإمام علي الهادي, أو الإمام علي الرضا أو الإمام موسى بن جعفر بل كانت رواياته كلها عن أناس من عامة الشعب. أعني أن رواة هذه الأحاديث الذين إعتمدهم الإمام الكليني لم يكونوا من المعصومين, بل لم يكونوا من أل البيت.

ولهذا نقول أن الإمام جعفر الصادق رضوان الله عليه لم يتولى أمور المسلمين بالرغم من أن الظروف كانت مهيأة له, ومكانته في نفوس جميع المسلمين عظيمة, إلا أنه ترك لنا أمرين الأول فقهه المدون والثاني هذا الرعيل الهائل من الفقهاء الذين تتلمذوا على يديه.

1

و إنتقل إلى رحمته تعالى فخلفه إبنه الإمام موسى بن جعفر, فلم يلي حكما ولم يترك فقها. وإن نقلت عنه بعض الروايات, وعاش عريبا من الخليفة الرشيد, ولو أن بعض الروايات تقول انه مات مسموما, وتتهم الرشيد بأنه دس له السم ليتخلص منه رحمه الله.

وإنتقلت الإمامة إلى الإمام علي بن موسى "الرضا" كذلك لم يل حكما إلا أن الخليفة المأمون قد عينه ولي عهده, لكنه مات قبل المأمون. ولم يترك لنا فقها معينا أو بيانا لمسألة مستجدة وما أكثرها في عهده وعهد سلفه. وبوفاته إنتقلت الإمامة إلى محمد بن علي الجواد ومنه إلى الإمام علي بن محمد الهادي ثم للإمام الحسن العسكري ثم إلى المهتدي المنتظر. فلم يل أحد منهم الحكم ولم يترك لنا رأيا في مسألة, ولم يشرح لنا أية أو حديثا لرسول الله ﷺ إلا النادر جدا إن وجد. ألهذا عصمهم الله, وجعلهم الأمناء على دينه, والمبينين لإحكام الله, وما يستجد من أمور؟

هذه مجرد تساؤلات عن موضوع العصمة ومدى أثرها على الدعوة الإسلامية وحملتها فقد كانت فكرة إنتظار المهدي من الأفكار المثبطة للهم عن العمل لإستئناف الحياة الإسلامية لإستحالة ذلك. والأسوء منها فكرة العمل على زيادة الظلم والفسق والفجور حتى تسارع بالفرج وتعجل بظهور المهدي الذي لا يظهر حتى يمتلئ العالم ظلما وجورا كي يملأه قسطا وعدلا. وقد يرد فكر بديل لها وهو ولاية الفقيه, ووجوب العمل لإستئناف الحياة الإسلامية تحت إمرة أمير فقيه, بالرغم من كثرة المعارضين لهذا الفكر من أبناء الطائفة نفسها.

إنه بالرغم من هذه الخطوة المتقدمة في العمل لعودة الإسلام لواقع الحياة عند هذه الفئة من الناس, وتبني ولاية الفقيه, إلا أنه صاحبها من الأفكار السابقة فكرة تحديد موقف المسلم مما حصل بعد وفاة رسول الله ﷺ وتولي أبو بكر الخلافة ثم عمر ثم عثمان فهل كانت خلافة هؤلاء الثلاثة حق أم أنها خلافة باطلة؟ وبالرغم من الرد على ذلك أنها تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعلمون, إلا أنهم يصرون على إتخاذ موقف معين من ذلك, فعليه يترتب سير العمل؟

إن البحث هنا لا يعني مناقشة هذه الأفكار, ولست بصدد بيان الخطأ والصواب بل إن البحث كله يتناول ما يجب أن تكون عليه كل فئة تدعو للإسلام, تدعوا لعودة الإسلام لواقع الحياة, تدعو لإستئناف الحياة الإسلامية. أن تكون دعوتهم طبقا لما جاء في الأية الكريمة ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1]

نعم ندعوا إيمانا بما جاء في هذه الأية الكريمة فلا بد أن تحدد سبيل رسول اللهﷺ في دعوته إلى الله فقد ذكرت الأية الكريمة أن تكون الدعوة على بصيرة. وعي كامل على الفكرة التي يدعوا إليها بكلياتها وجزئياتها, وعي على الهدف الذي يسعى إليه, والطريق الموصل لهذا الهدف. وعي من قيادة الجماعة والوعي نفسه من أعضاء هذه الجماعة, فلا يصح إقتصار أمير الجماعة على معرفة الفكرة أو معرفة طريقة الوصول إليها, أو معرفة الهدف أو معرفة كيفية تحقيقه, لأن مما جاء في الأية الكريمة قوله تعالى ﴿ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ فكرة شاملة لجميع نواحي الحياة, سواء منها ما يتعلق بإصلاح الفرد كالعبادات والأخلاق أو ما يتعلق بعلاج المجتمع في نظمه الإقتصادية والإجتماعية والسياسية. أو في كيفية إختيار الحاكم أو كيفية محاسبته. ثم الوعي على كيفية إيصال هذه الفكرة إلى التنفيذ والمباشرة هذا ما وددت بحثه أو طرحه لجميع الفئات للنظر فيما هي عليه عسى الله أن يهدينا سواء السبيل. ولتقدم كل فئة ما إستطاعت ولكن في السبيل الذي يغلب على الظن فيها أنها تؤدي إلى تحقيق الهدف, وإقامة الدولة الإسلامية, لا أن يقال يكفينا أن نترك التراث خيرا مما وجدناه عليه.

وإنه وإن سلمنا جدلا بأن الإمام جعفر بن محمد الصادق هو إستاذ الفقهاء وقد ترك للمسلمين ذخيرة فكرية وفقهية هائلة. فأين هي ؟ أي أنها لم تدون بالرغم من أن عصره عصر التدوين. ولذلك كان كتاب الكافي للإمام الكليني هو المرجع الأساسي للفقه الجعفري. فلو كان فقه الإمام مدونا لما إحتجنا الكتاب الكافي, ونرجع مباشرة إلى اقوال الإمام رحمه الله.

1

التصوف

مع مطلع القرن الثاني للهجرة, ظهر العديد من الفرق الكلامية, كالمعتزلة والجبرية وأهل السنة والجماعة, وإشتد الصراع الفكري بينها. متخذة إسلوب المنطق إسلوبا للوصول إلى قواعد وأفكار ترد بها على أفكار الفئات والفرق الأخرى. وقد كان الباعث على ظهور هذه الفرق إبتداء هو الرد على الناطرة واليعاقبه الذين إستعملوا هذ الاسلوب لتشكيك المسلمين في معتقداتهم. إلا أن الأمر لم يقف عند حد الرد على هؤلاء بل تعداه لتولى كل فريق الرد على غيره من المسلمين, واندفعوا في البحث والتنقيب عما يعزز أراءهم, ويقوي حججهم, فعمدوا إلى ترجمة كتب الإغريق, وتأثروا بما جاء فيها, ومنهم من إتخذ الإبيقورية وأساليبها سلاحا له, ومنهم من أخذ الرواقية مدرسة له. نشأ عن ذلك عدة مشاكل منها مشكلة القضاء والقدر التي ما زالت أثارها قائمة إلى يومنا هذا. وكان المنهج الذي يسيرون عليه, إن الإيمان الحق هو الإيمان الذي يتوصل إليه بالمنطق. وأن العقل هو الحكم في كل شيء, فإذا تعارض العقل مع النص القرأني وجب تأويل المعنى بما يتفق مع العقل. كما أنهم حكموا العقل في الخير والشر والحسن والقبح, وبحثوا في العقليات والحسيات. فكانت بحوثهم هذه مثيرة للمسلمين مزعجة لهم, فإخذوا يبحثون عن فلسفة أخرى يردون بها على هؤلاء. فوجد البعض في الفلسفة الهندية ضالته, وتتلخص تلك بالنظر للإنسان بأنه جسد وروح. فالإعتناء بالجسد يضعف الروح, وتعذيب الجسد يغذي الروح فتقوى على الجسد وتحلق في عليائها لتتصل بخالقها. ونشأت على هذه الفلسفة الطرق الصوفية المتعددة, والتي يلتقي جميعها على هذه الفكرة. فكرة العزوف عن الدنيا, وتعذيب الجسد والإكتفاء بما يقيم الأود, ويبقي على الحياة ومحاولة الإتصال بالذات الإلهية " كم من أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره " " يا عبدي اعبدني تكن مثلي تقل للشيء كن فيكون " وترتب على هذا ظهور بعض الطرق الصوفية كالرفاعية, والنقشبندية, والكيلانية. وظهور بعض المشايخ الواصلين – كما زعموا – وأصحاب الكرامات, وإلتف حولهم الكثير من الأتباع والمريدين, وما زالت بعض هذه الفرق قائمة إلى الأن, ومنها ما نشأ حديثا. ووجدت تكتلات واسعة تسير وراء الشيخ الفلاني صاحب الطريقة الفلانية. وكثر المريدين والاتباع, من الذين إستهواهم الهوس الديني, أو من الذين يريدون الفرار من تبعات الحياة الدنيا, ومهما يكن من أمر

فلست بصدد مناقشة ما يحملون من أفكار, إلا إنني أريد تذكيرهم بما تركوه من أحكام. فما يقولون به فأمره إلى الله قبله أو رده. وما يدعونه من كرامات ومعجزات فذلك شأنهم. وأما ما نريد تذكيرهم به, فهو غياب الإسلام عن واقع الحياة العامة ونوجه إليهم بعض الأسئلة طالبين منهم الإجابة المقترنة بتقوى الله.

1. ما حكم من ترك فرضا فرضه الله عليه؟ وتشاغل عنه بالمندوب؟
2. ما حكم الساكت عن الحق المضاع؟
3. ما حكم من أقر بتعطيل أحكام الشرع, وأقر بالخضوع للتشريع القوانين وحكم الطاغوت؟
4. اليس فرضا على المسلمين أن يعيدوا حكم الله في الناس؟ أم حكم الجاهلية يتبعون؟
5. لماذا نهمل العمل لإقامة الخلافة مع أنها فرض جامع لكافة نواحي الحياة وبغيابها غياب تسعة أعشار الإسلام.
6. ما حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

وإلى مثل هذه الأحكام نذكر القوم دون مناقشة ما هم عليه. ومن المعروف أن سيد المتصوفة وإمامهم هو الإمام محمد بن محمد أبو حامد الغزالي. فهلا جعلتم من حياته وسيرته منهجا وسبيلا, مع إدراك الإختلاف في الظرف, والتباين في المطلوب. فقد عاش الغزالي في ظل دولة الخلافة – أقوى وأعظم دولة في ذلك العصر – والحكم قائم على ما أنزل الله في معظمه. وجيوش المسلمين تجوب البلاد شرقا وغربا, شمالا وجنوبا لا يجرؤ أحد أن يقف في وجهها. والنهضة الإسلامية في أوجها, والصراع الفكري على أشده بين الفرق والمذاهب والتكتلات الإسلامية تهيمن على الشارع برمته بحيث لا يتأتى للفرد أن يعتزل هذه الفرق جميعها ويخلو لنفسه, إلا من تبلد حسه وهرب بنفسه من تبعات الحياة. في مثل هذا المجتمع وجد الإمام الغزالي فأدلى بدلوه وقطع شوطا بعيدا في التصدي لكل من يراه قد ضل السبيل, أو إنحرف عن جادة الصواب فهو تارة يرد على أهل البدع, وتارة يفند أراء الفلاسفة والمتكلمين. مثل كتابه تهافت الفلاسفة, وأروع من ذلك كله بحثه في محاسبة الحاكم ومراقبته وحرصه على مصالح

المسلمين وبحثه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما جاء في كتابه إحياء علوم الدين أقتطف منه بعض الفقرات. كما اصل لقراءة هذا البحث من الكتاب نفسه جميع دعاة الصوفية والتصوف, وجميع القاعدين عن العمل لإستئناف الحياة الإسلامية وعودة الإسلام لواقع الحياة.:

بسم اللـه الرحمـن الرحيـم

الحمد لله الذي لا تستفتح الكتب إلا بحمده, ولا تستمنح النعم إلا بواسطة كرمه وعفوه. والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعبده, وعلى اله الطيبين وأصحابه الطاهرين من بعده, أما بعد,

فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين, وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين, ولو طوي بساطه, وأهمل عمله وعلمه لتعطلت النبوة, واضمحلت الديانة, وعمت الفترة, وفشت الضلالة, وشاعت الجهالة, واستشرى الفساد, واتسع الخرق, وخربت البلاد, وهلك العباد, ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد. وقد كان الذي خفنا أن يكون, فإنا لله وإنا إليه راجعون, إذ قد اندرس من هذا القطب علمه وعمله, وانمحق بالكلية رسمه وحقيقته, فاستولت على القلوب مداهنة الحق. وانمحت عنها مراقبة الخالق, واسترسل الناس في إتباع الشهوات والهوى إسترسال البهائم, وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله ولومة لائم. فمن سعى في اتباع تلافي هذه الفترة, وسد هذه النلمة, إما متكلفا بعملها, أو متقلدا لتنفيذها. مجددا لهذه السنة الدائرة, ناهضا بأعبائها, ومتشمرا في إحيائها كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة اقتضى الزمان إلى إماتتها, ومستبد بقربة تتضاءل الدرجات دون ذروتها. وفي وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:-

ويدل على ذلك بعد إجماع الأمة عليه, واشارات العقول السليمة إليه, الأيات والأخبار والأثار. أما الأيات فقوله تعالى ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] ففي الأية بيان الإيجاب, فإن قوله ﴿ وَلْتَكُنْ ﴾ أمر. وظاهر الأمر الإيجاب. ومنها بيان أن الفلاح منوط به إذ حصر وقال ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وفيها

1

بيان أنه فرض كفاية. وأنه إذا قام به فرد أو جماعة سقط الحرج عن الأخرين, واختص الفلاح بالقائمين به, المباشرين له وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه.

وأما الأخبار فمنها ما روي عن إبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها " أيها الناس انكم تقرؤون الأية وتؤولونها على خلاف تأويلها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإني سمعت رسول اللهﷺيقول ﴿ ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده ﴾[1]".

وأما الأثار فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه "لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يجل كبيركم, ولا يرحم صغيركم, ويدعوا عليه خياركم فلا يستجاب لهم, وتستنصرونه فلا تنصرون, وتستغفرون فلا يغفر لكم".

وسئل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن ميت الأحياء فقال: "الذي لا ينكر المنكربيده ولا بلسانه ولا بقلبه" وقال حذيفة: "يأتي على الناس زمان لأن تكون بينهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم".

فقد ظهر بهذه الأدلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب, وأنه فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به. هذا مع العلم أنه ذكر أيات وأحاديث وأثار وأكثر من هذا بكثير. واقتصرت على هذه لم فيها من كفاية لبيان الوجوب.

1

المنكرات العامة

أعلم أن كل قاعد في بيته ليس خاليا في هذا الزمان من منكر. من حيث التقاعس عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف, فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد, فكيف في القرى والبوادي, وواجب على كل فقيه فرغ من فرض عينه, وتفرغ لفرض الكتابة أن يخرج إلى من يجاوره من أهل البوادي, وكل عامي عرف شروط الصلاة فعليه أن يعرف غيره وإلا فهو شريك في الإثم. ومعلوم أن الإنسان لا يولد عالما بالشرع, وإنما يجب التبليغ على أهل العلم, فكل من تعلم مسألة واحدة فهو من أهل العلم بها. ولعمري الأثم على الفقهاء أشد, لأن قدرتهم فيه أظهر, وهو بضاعتهم اليوم. فكل من يتيقن أن في السوق منكرا يجري على الدوام, أو في وقت بعينه وهو قادر على تغييره, فلا يجوز له أن يسقط ذلك عن نفسه بالقعود في البيت, بل يلزمه الخروج, فإن كان لا يقدر على تغيير الجميع وهو محترز عن مشاهدته ويقدر على إزالة البعض لزمه الخروج, لأن خروجه إذا كان لأجل تغيير ما يقدر عليه فلا يضره مشاهدة مالا يقدر عليه, وإنما يمنع الحضور لمشاهدة المنكر من غير غرض صحيح.

فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات, ثم يعلم بعد ذلك أهل بيته, ثم يتعدى بعد ذلك إلى جيرانه ثم أهل محلته ثم أهل بلده ثم إلى السواد المكثف في بلده ثم أهل البوادي من الأكراد والعرب وغيرهم وهكذا إلى أقصى العالم فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد, وإلا حرج به على كل قادر عليه قريبا كان أم بعيدا, ولا يسقط الحرج ما دام على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه, وهو قادر أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلمه فرضه.

خاتمة

إن ما أسلفنا هو الطريق القويم للوصول بالأمة إلى مرحلة يتمكن القائمون على حمل دعوة الإسلام لإستئناف الحياة الإسلامية فيها من القيام بالخطوة الأخيرة وهي اللجوء لمراكز القوة لإيصال فكرتهم إلى سدة الحكم. ورعاية شؤون الناس بحسبها. أي هي النجاح في إيجاد شباب واعين على فكرتهم مبصرين طريقهم عندهم الإستعداد للتضحية, والكفاءة والقدرة على رعاية شؤون الناس بالفكرة التي دعوا الناس إليها. وكذلك النجاح في إيجاد أمة تقبل بتطبيق شريعة الإسلام عليها. وإستعدادها لبذل الغالي والنفيس في سبيل حماية دولتها إن تعرضت لغزو, أو إن كلفت بالقيام بما أوجب الله عليها من جهاد في سبيله, وحمل دعوته, والنجاح كذلك في عملية الإتصال بمراكز القوة لإقناعهم بالقيام بعملية التغيير فهم أبناء هذه الأمة التي أمنت بهذه الفكرة.

وبناء على ما تقدم فدعونا نلقي نظرة على الواقع الذي نعيش فيه, واقع هذه الأمة, وإلى أين وصلت فيها دعوة الداعين للإسلام؟؟ ومدى تأثرها بالظروف والأحوال التي طرأت عليها خلال العقدين الأخيرين؟؟

هل أنها ما زالت تستهجن العمل السياسي على أساس الإسلام, بل هل ما زالت تعتبر أن الإسلام بعيد عن السياسة, فالسياسة هي الخداع والتضليل, والإسلام بريء من ذلك؟؟

هل ما زالت ترى أنه لا حزبية ولا أحزاب في الإسلام؟

هل ما زالت تستبعد عودة الإسلام لواقع الحياة, وعودة عزة المسلمين ومجدهم؟

هل ما زال إيمانها يدفعها للخروج للجهاد في سبيل الله ؟

هل ما زالت تتشبث بالإشتراكية والقومية وغير ذلك من أفكار؟

ما الذي تشكو منه؟

أمن قلة عدد المؤمنين؟

أمن قلة المصلين؟

أمن قلة عدد الملتزمين بأحكام الإسلام؟

هل لها أمل بإنقاذها مما هي فيه بغير الإسلام, وما هو؟

كل هذه الأسئلة لا بد من التدقيق في واقع الأمة لمعرفة الإجابة عليها ومعرفة ما تعانيه الأمة من أمراض تقف حائلا دون عودتها إلى ربها, وعودة عزة المسلمين ومجدهم.

منذ أن بدت الحيوية تدب في الأمة بعد طول رقاد, وبعد صدمات عنيفة هزت كيانها, بدأت بعض الحركات تظهر لتحرك جانبا في حياة الأمة تدعوها فيه للنهوض أو على الأقل للتخلص من الواقع المؤلم التي تعيش فيه, وقد تعددت الحركات وفشلت فشلا ذريعا وذلك لاسباب متعددة منها عدم وضوح الفكرة التي تريد النهضة على أساسها. فقد كانت تقوم كردة فعل من الإحساس للعمل أو تأثرا بما تسمع عنه في الغرب, أو بتوجيه من المطبوعين بالثقافة الغربية.

كذلك لم تكنت تعرف الطريق الذي عليها أن تسلكه. أو في الكيفية التي يتم فيها تكوين تلك الحركة أو الجمعية أو الحزب, أو أنها إقتصرت على جانب معين تدعو إليه مثل الجمعيات الخيرية والدعوات الروحية والخلقية وغير ذلك. كما وجد فيها أحزاب تجاهر بالدعوة للديمقراطية أو الإشتراكية أو القومية أو غير ذلك.

وكان من الطبيعي أن يحيق الفشل فيها, فلم يتغير واقع الأمة وما زالت ترزح تحت نير الإستعمار بواسطة عملائه. إلا أن هذه الدعوات جميعها قد تركت أثرا إيجابيا فاعلا في الأمة. وأخذت تتلمس طريقها باحثة عن مخرج أو منقذ. ولهذا فقد إنفعلت بعنف حين قامت ثورة الخميني فغمرتها عاطفة حادة من التأييد لما جرى بالرغم من الخلافات المذهبية والقومية. فقد كان التأييد شاملا جميع بلاد المسلمين بلا إستثناء, ولم يخب ذلك التأييد إلا بعد أن أسفر الحكم في إيران عن شرذمته بالمذهبية وتقيده بالقومية الفارسية. ولهذا فقد ترك عند الأمة تحسسا واستعدوا للتغيير على أساس الإسلام. وقد تجلى هذا في الجزائر بما يسمى بجبهة

الإنقاذ فقد إندفعت الأمة هناك لتعطي الثقة والقيادة لهذه الحركة. وما زالت بالرغم من الخطأ الجسيم الذي إرتكبته تلك الحركة حين إتخذت طريق الديمقراطية وسيلة للوصول إلى الحكم بالإسلام, وأهملت أخذ مراكز القوة في الأمة وذلك لقصر نظرها وعدم إدراكها لهذه المسألة.

وما يجري في تونس والسودان وما يحصل في مصر, وما جرى في الأردن يعطينا فكرة حقيقية صادقة عما وصلت إليه الأمة. وذلك بسبب صدق وصفاء عقيدتها, وثقتها بربها, وإيمانها بدينها وشريعتها. بالإضافة إلى جهود المخلصين من أبنائها الذين يحاولون جاهدين تذكيرها بتقوى الله وما وعدها الله به من نصر.

كما أننا لا ننس مواقف حكامها من أعدائها, وشراسة مواقف الكفار منها, والمصائب التي تحيط بها أو تقع عليها.

إذن فما الذي تريده الأمة؟

حين إندفعت لتأييد الخميني كانت تأمل أن يمن الله عليها بالنصر والخلاص ولم تنتظر حتى يزداد عدد المصلين, أو حتى تدرس صفات الله فتعرف كيف توحد الله وتصلح عقيدتها. ولم تنتظر حين إلتهبت مشاعرها حماسا مع حركة الإنقاذ أن يمن الله عليها بطرق صوفية جديدة, أو تتضح لها عقيدة الإسلام أكثر فأكثر على يد جبهة الإنقاذ.

إن قلب الأمة المشدود ليقف مع حركة الجهاد الإسلامي في مصر لم ينتظر من حركة الجهاد أن تفتح عليه بركات من السماء, فتوسع عليها بالرزق والخير. إن هذا القلب المعلق بحركة الجهاد في مصر, ومع المسلمين في البوسنة والهرسك, كما كان معلقا بالثورة في أفغانستان لا ينتظر إلا النصر من الله سبحانه وتعالى, وإرتفاع راية الحق راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

أيها المخلصون

أيها المؤمنون العاملون

أيتها الأحزاب المتناحرة

أيها القادة

يا مراكز القوة في الأمة, إن أمتكم بحاجة إلى من يقتلع الكفر من جذوره, ويعصف بمخلفاته, ويبعد عنها دساتيره وقوانينه ليتمكن المخلصون من رفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

يا مراكز القوة المؤمنة, طهري الكراسي من عفن الغرب وكفره وخذي من تشائين من القادرين على تطبيق شريعة الله ورفع راية الإسلام.

فلم يعد الوقت وقت صراع فكري, وإختلاف على الفكرة والطريقة, وليس الوقت وقت تسقط إخطاء الأخرين أو مخالفتهم فيما تبنوا من أفكار وأحكام وأراء.

لم يعد الوقت وقت بحث في الفرقة الناجية

لم يعد الوقت وقت إنتظار المهدي

لم يعد الوقت وقت بيان الإستواء

إنكم جميعا في المجتمع في هذه الأمة ترون بأم أعينكم, وتسمعون بأذانكم, وتلمسون بأيديكم ما تعاني منه الأمة, وما رسمت لنفسها من أمال وأماني, وكلكم يدرك قدرة الأمة حين تندفع في سبيل الله, إنه لا يقف في وجهها أحد, بالإضافة إلى الإيمان المطلق بنصر الله.

دستور الدولة الإسلامية الأولى

بعد وصول الرسولﷺ إلى المدينة جمع زعماء المدينة من مؤمنين ومسلمين ويهود. وأمر علي بن أبي طالب أن يكتب وثيقة بين الناس تنظم ما بينهم من علاقات حتى تاريخه, وكان مما أملى عليه ما يلي:-

بسم الله الرحمن الرحيم

1. **هذا كتاب من محمد النبي <ﷺ> بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم, أمة واحدة من دون الناس**
2. **وأن كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين**
3. **وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه**
4. **وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم, أو ابتغى وسيعة ظلم, أو اثما أو عدوانا أو فسادا بين المؤمنين, وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم.**
5. **ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر, ولا ينصر كافرا على مؤمن**
6. **وأن ذمة الله واحدة, يجير عليهم أدناهم**
7. **وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس**
8. **وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم**
9. **وأن سلم المؤمنين واحدة, لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم**
10. **وأن كل غازية غزت بعقب بعضها بعضا**
11. **وأن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله**
12. **وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى واقومه**
13. **وأن لا يجبر مشرك مالا لقريش ولا نفسا, ولا يحول دونه على مؤمن**
14. **وأن من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فهو قود به, إلا أن يرضى ولي المقتول <بالعقل> وأن المؤمنين عليه كافة, ولا يحل لهم إلا قيام عليه**

15. وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وأمن بالله واليوم الأخر أن ينصر محدثا أو يؤويه, وأن من نصره أو أواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة, ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل

16. وأنه مهما إختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد

17. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين

18. وأن اليهود أمة مع المؤمنين, لليهود دينهم, وللمسلمين دينهم, مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

19. وأن بطانه يهود كأنفسهم

20. وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد

21. وأنه لا ينحجز على ثأر جرح, وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا

22. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم, وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة, وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم

23. وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها

24. وأنه لا يأثم أمرؤ بحليفه, وأن النصر للمظلوم

25. وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة

26. وأن الجار كالنفس غير مضار ولا أثم

27. وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث, أو اشتجار يخاف فساده فأن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله, وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره

28. وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها

29. وأن بينهم النصر على من دهم يثرب

30. وأن دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه, وأنهم إذا دعوا لمثل ذلك فإن لهم على المؤمنين الأمن حارب في الدين

هذا بعض مما جاء في هذه الوثيقة التي أملاها رسول الله بين المؤمنين والمسلمين واليهود بحضور زعمائهم وطلب منهم التوقيع عليها فوقعها من حضر منهم وإلتزم بها الجميع فكانت بحق هي أول دستور مكتوب في العالم. وقد تناول هذا الدستور في حينه أسس العلاقات العامة سواء

في الأمن الداخلي والعلاقات الداخلية أو في الأمن الخارجي والحرب والأخلاق أو في العلاقات الخارجية من حيث أن العلاقات العامة لم تكن قد شرعت أحكامها بعد, فقد كان هذا الدستور في الأيام الأولى من وصول رسول اللهﷺ إلى المدينة.